مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ٩

جماليَّةُ فن المعاني في الخطبةِ التوحيديَّةِ للإمامِ الرضا عليه السَّلام

الباحثة

طالبة الدكتوراه

نور جبار كريم الظاهر

قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الدكتور علي شريعتي ، جامعة فردوسي مشهد

الأستاذ المشرف

أ.م.د حسين ناظري

أستاذ اللغة العربية في جامعة فردوسي مشهد

البريد الإلكتروني Email : Nooraldhaher2020@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الإمام الرضا (ع) جمالية، علم المعاني، الخطبة، التوحيد .

كيفية اقتباس البحث

الظاهر، نور جبار كريم ، حسين ناظري ، جماليَّةُ فن المعاني في الخطبةِ التوحيديَّةِ للإمامِ الرضا عليه السَّلام،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، أيلول ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:٩ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The aesthetics of the art of meaning in the monotheistic sermon of Imam al-Rida, peace be upon him

PhD student Research
Nour Jabbar Karim Al-Zahir
Department of Arabic Language and Literature, Dr. Ali Shariati College, Ferdowsi University of Mashhad
Nooraldhaher2020@gmail.com

Supervising Professor
Dr. Hossein Nazeri
Professor of Arabic Language at Ferdowsi University of Mashhad

Keywords : Imam al-Rida (peace be upon him). Doctrinal Sermons. The Aesthetics of Art. Semantics|.

How To Cite This Article
Al-Zahir, Nour Jabbar Karim , Hossein Nazeri , The aesthetics of the art of meaning in the monotheistic sermon of Imam al-Rida, peace be upon him,Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, September 2026,Volume:16,Issue 9.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

Imam al-Rida (peace be upon him) has an eloquent sermon from a literary perspective, known as the Tawhid Sermon, which carries intellectual and theological connotations. This research explores the aesthetics of the art of meaning found in Imam al-Rida's (peace be upon him) words, sayings, and sermons, as well as his approach to life, as well as the synthesis of his sermons and sayings.

From the perspective of the art of meaning, we find various expressive styles in the Imam's (peace be upon him) words at the structural and

semantic levels, proving the Imam's (peace be upon him) mastery of the arts of rhetoric and the aesthetics of expression.
The results of this research will benefit universities, the Ministry of Higher Education, the Ministry of Education and Training, the Ministry of Guidance, university libraries and seminaries, relevant institutions, as well as radio and media.

الملخص

للإمام الرضا (ع) خطبة بليغة من الناحية الأدبية، تُعرف بالخطبة التوحيدية، تحمل دلالات عقلية وكلامية، وهذا البحث حول استخراج جمالية فن المعاني التي جاءت في كلام الامام الرضا (ع) واقواله وخطبه ، ومنهجه في الحياة كذلك استقطاب ما جاء من خطبه واقواله (ع) .

ومن ناحية فن المعاني وجدنا انواع الأساليب التعبيرية في كلام الامام (ع) على المستوى التركيبي و المستوى الدلالي مما يثبت تضلع الامام (ع) فنون البلاغة وجماليات التعبير .

ويستفيد من نتائج هذا البحث كل من الجامعات ، وزارة التعليم العالي ، وزارة التعليم والتربية ، وزارة الارشاد ، المكتبات الجامعية والحوزات العلمية ، المؤسسات المعنية ، كذلك الإذاعة والاعلام .

١ . المقدمة :

للامام الرضا (ع) خطب واقوال ، وايضاً روايات حول الأصول الاعتقادية ومبادئ الشريعة ، جميعها تتسم بجماليات تعبيرية ، خاصةً في اطار فن المعاني ، وقدر وظفها الامام (ع) من اجل الدفاع عن مبادئ الشريعة ونشر التعاليم الصحيحة في مجال خط العقيدة .

استخدم الامام (ع) بعض البراهين والحجج لأقناع المعاندين ودفع الشبهة وبعض الشكوك الواردة من قبل المشككين او الساعين لاطفاء نور الشريعة .

اعتاد الامام الرضا (ع) بمنهجه السليم بالجدل والاقناع والمناقشة وشحد الآراء ، وكان يتحدث عن نماذج مقتبسة على سبيل التنظير من التفسير الدلالي الهادف لما تشهد مفرداته على الفكر الرائد ، وذكر مشاهد من قصص القران وهي تؤكد جوهر الوقائع وسر الاحداث وموارد العظة والعبرة والاستلهام وسرد جزءاً رفيعاً من التعبير العام في ابعاد الموضوعية لديهم .

وقسم البحث الى فصول ومباحث ومطالب .

٢ . أهداف البحث:

. تبيين فن المعاني في الخطبة التوحيدية للإمام الرضا (ع) وتحليل مكوناته البلاغية.

ـ دراسة الاستخدام الفني للغة، وإبراز التناسب بين الألفاظ والمعاني في بناء الخطبة.

ـ الكشف عن التناسب بين المضامين المعنوية والأهداف العقائدية التي سعى الإمام (ع) إلى تحقيقها.

ـ تحليل الترتيب المنطقي للأفكار، والأسس الفلسفية والكلامية التي اعتمدتها الخطبة في عرض الحجج.

٣ . أسئلة البحث:

١ كيف وظّف الإمام الرضا (ع) **فن المعاني** (كالخبري والإنشائي، والإسناد، والقصر، وغيرها) في الخطبة التوحيدية؟

٢ . كيف تجلّى **الاستخدام الفني للغة**، وما مظاهر التناسب بين الألفاظ والمعاني في الخطبة؟

٣ . ما مدى اتساق **الترتيب المنطقي** للأفكار، وكيف استخدم الإمام (ع) الأسس الفلسفية والكلامية لإقامة الحجج؟

٤ . فرضيات البحث:

١ . اعتمد الإمام الرضا (ع) في خطبته على **تنويع الفنون البلاغية** (خاصة في علم المعاني) مثل: الخبري والإنشائي، والقصر، والانزياح الدلالي، لدعم المحتوى العقائدي.

٢ . تميزت الخطبة **بتوافق الألفاظ مع المعاني**، مع مراعاة السياق والغرض العقائدي، مما عزّز قوة الإقناع.

٣ـ نظراً لطبيعة الخطبة العقائدية، استند الإمام (ع) إلى **أسس منطقية وفلسفية** (كالتدرج الاستدلالي، ونفي الحدوث، والاستدلال بالفطرة) لبناء حججه، وختمها بتأكيد عجز البشر عن إدراك كنه الذات الإلهية.

٥ . خلفية البحث

تعد **الخطبة التوحيدية** للإمام الرضا (ع) من النصوص العقائدية البليغة التي حظيت باهتمام كبير في المصادر الروائية والكلامية الشيعية. وقد وردت هذه الخطبة في عدد من الكتب المعتمدة، منها: **عيون أخبار الرضا (ع)** للشيخ الصدوق، ص ١٤٩؛ **كتاب التوحيد** للشيخ الصدوق، باب التوحيد ونفي التشبيه، ص ٣٤؛ **الأمالي** للشيخ المفيد، ص ٢٣٥؛ **الأمالي** لشيخ الطائفة الطوسي.؛ **بحار الأنوار** للمجلسي، باب جوامع التوحيد، ج ٤، ص ٢٢٧.؛ وكتاب **تحف العقول** للحراني.

كما تناول شرحَها عددٌ من العلماء والمحققين، منهم: **القاضي سعيد محمد بن محمد مفيد القمي (رحمه الله)** في كتابه **الاحتجاج** للطبرسي، باب احتجاج الرضا (ع)، حيث نقل الخطبة في

المجلد الأول (ص ٤٧) مع شرح مفصل لمعظم عباراتها. ويُعد هذا الكتاب من المصادر المهمة في **العرفان العلمي**. و**المصفوي** في كتابه **معرفة الله**، حيث قدم شرحًا وافيًا للخطبة باللغة الفارسية، وقد جاءت هذه الخطبة **مرويةً بأسانيد معتبرة** في العديد من المصادر الشيعية، وأبرزها كتاب **عيون أخبار الرضا (ع)** لابن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، حيث نقل نصَّها كاملًا.

٦ . سند الرواية

«حَدَّثَنا مُحَمَّدُبْنُ الْحَسَنِبْنِ اَحْمَدَبْنِ الْوَليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ :حَدَّثَنا مُحَمَّدُبْنُ عَمْروالْكاتِبُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيادٍ الْقَلُونيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زِيادٍ الْجُدِّيِّ . صاحِبِ الصَّلوةِ بِجِدَّة . قالَ حَدَّثَني مُحَمَّدُبْنُ يَحْيَيبْنِ عُمَرَبْنِ عَليِّ بْنِ أَبي طالِبٍ عَلَيهِ السَّلامُ قالَ: سَمِعْتُ اَبَاالْحَسَنِ الرِّضا عَلَيْهِ السَّلامُ يَتَكَلَّمُ بِهذَا الْكَلامِ عِنْدَ الْمَأمُونِ فِي التَّوْحيدِ .قالَ ابْنُ أَبي زِيادٍ: وَرَواهُ لي وأَمْليه اَيْضاً اَحْمَدُ بْنُ عَبْداللّهِ الْعَلَوِيُّ مَوْليِّ لَهُمْ وخالاً لِبَعْضِهِمْ، عَنِ الْقاسِمِ بْنِ أَيُّوبَ الْعَلَوِيِّ [١].

من أهم ميزة هذه الرواية هي الإسناد للرواية والتسلسل المطلوب للتوثيق وهي تتحدث عن بدايات اختيار الإمام الرضا (ع) لأمر الولاية والتولية.

٧ . أسباب ودواعي هذه الخطبة

كانت هذه الخطبة تلبية لطلب من بني هاشم حيث تذكر الروايات ((إنَّ الْمَأمُونَ لَمّا أَرادَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ الرِّضا عَلَيْهِ السَّلامُ جَمَعَ بَني هاشِمٍ، فَقالَ لَهُمْ: اِنّي أُريدُ أَسْتَعْمِلَ الرِّضا عَلي هذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدي، فَحَسَدَهُ بَنُوهاشِمٍ، وَقالُوا: أَتُوَلّيه رَجُلاً جاهِلاً لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ بِتَدْبيرِ الْخِلافَةِ؟ فَابْعَثْ اِلَيْهِ رَجُلاً يَأتِنا، فَتَريه مِنْ جَهْلِهِ ما تَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ اِلَيْهِ، فَأَتاهُ فَقالَ لَهُ بَنُوهاشِمٍ: يا أَبَاالْحَسَنِ، اصْعَدِ الْمِنْبَرَ وَانْصِبْ لَنا عَلَماً نَعْبُدُ اللهَ عَلَيْهِ ، فَصَعِدَ عَلَيْهِ السَّلامُ الْمِنْبَرَ، فَقَعَدَ مَلِيّاًلها يَتَكَلَّمُ مُطْرِقاً، ثُمَّ انْتَفَضَ انْتِفاضَةً واْستَويه قائِماً، وحَمِدَ اللّهَ تَعالى، وَأَثني عَلَيْهِ وَصَلّي عَليه نَبِيِّهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ)) [٢]. فجاءت هذه الخطبة وفقاً للظروف المفروضة وهي تبين مقتضى الحال للإمام الرضا (ع) وتعتبر **ملاحظة مقتضى الحال** في الكتب البلاغية من أهم الموضوعات البلاغية، لا لكونها الدليل الوحيد على بلاغة الكلام فحسب، بل لأنها تُعد أساساً وعموداً لجميع الموضوعات البلاغية؛ ذلك أن كل فن من فنون البلاغة . عند مراعاة مقتضى الحال . يلعب دوراً فاعلاً في بلاغة الكلام [٣].

إن **مقتضى الحال** هواستنتاجٌ يستند إلى ما يُوحِي به ظاهر الكلام فقط. وما يُسمى في علم المعاني **الخروج عن مقتضى الظاهر** لا يقتصر على مواضيع علم المعاني وحسب، بل عندما يخرج الكلام عن التطبيق الاعتيادي أوالظاهري، ويُؤول بطريقة مختلفة في بعض السياقات،

يُعتبر ذلك خروجًا عن مقتضى الحال. ولأهمية هذا الموضوع ودوره المحوري في فهم النص، لا بد من التأكيد على أن مراعاة مقتضى الحال تُعد شرطًا جوهريًا لتحقيق البلاغة في الكلام.

٨ . معرفة البارئ جلَّ عُلاه

بدأ الإمام كلامه في هذه الخطبة بتبيين معرفة الباريء جل علاه، حيث اعتبرها أساس العبادة وهي غاية التذلل والطاعة لله تبارك وتعالى:

«ثُمَّ قالَ: اَوَّلُ عِبادَةِ اللّهِ تَعالى مَعْرِفَتُهُ، وَاَصْلُ مَعْرِفَةِ اللّهِ تَوْحيدُهُ، وَنِظامُ تَوْحيدِ اللّهِ تَعالي نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ لِشَهادَةِ الْعُقُولِ أنَّ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوق، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّ لَهُ خالِقاً لَيْسَ بِصِفَةٍ وَلها مَوْصُوفٍ، وَشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالْإِقْتِرانِ، وَشَهادَةِ الاقْتِرانِ بِالْحَدَثِ وشَهادَةِ الْحَدَثِ بِالإمْتِناعِ مِنَ الْأَزَلِ الْمُمْتَنَعِ مِنَ الْحَدَثِ؛ فَلَيْسَ اللّهُ تعالى مَنْ عُرِفَ بِالتَّشْبيهِ ذاتُهُ، وَلا اِيّاهُ وَحَّدَهُ مَنِ أكتَنَهُ، وَلا حَقيقَتَهُ أَصابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلا بِهِ صَدَّقَ مَنْ نَهّاهُ ولا صَمَدَ صَمَدَهُ مَنْ أَشارَ اِلَيْهِ، وَلا اِيّاهُ، عَني مَنْ شَبَّهَهُ، ولا لَهُ تَذَلَّلَ مَنْ بَعَّضَهُ، وَلا اِيّاهُ أَرادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ» (٤).

ابتنى هذا المقطع من الخطبة على مباني وعدة فنون بلاغية خاصة مباني علم المعاني، وهوأحد فروع البلاغة العربية الذي يهتم بمعاني الكلام ومدلولاته، وفقًا لسياقه وتركيبه. ومن أهم مباني علم المعاني التي تظهر في النص:

. الأسلوب الخبري في قوله: الله جل جلاله «أَوَّلُ عِبادَةِ اللّهِ تَعالى مَعْرِفَتُهُ»، جملة خبرية تحتمل الصدق أوالكذب (٥). والجمل الخبرية في هذا النص جاءت لتقرير الحقيقية وإثباتها. والأسلوب الخبري في هذا النص يتجلى في الجمل التي تُقرر حقائق أو تشرح مفاهيم بشكل مباشر، دون إنشاء أو طلب. الجمل المذكورة أعلاه كلها أمثلة على الأسلوب الخبري؛ لأنها تنقل معلومات أوحقائق بشكل موضوعي. ثم يتابع الأسلوب الخبري حتى يصل إلى نفي الصفات وذلك في قوله:جل جلاله «فَلَيْسَ اللّهُ تعالى مَنْ عُرِفَ بِالتَّشْبيهِ ذاتُهُ، إلى قوله تعالى «وَلا اِيّاهُ أَرادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ»

في النص يمكن استخراج الأسلوب الإنشائي الضمني من خلال تحديد الجمل التي لا تُقرر حقائق، بل تُستخدم للتعبير عن معانٍ إنشائية مثل النفي أوالتأكيد أوالتوجيه. فالأسلوب الإنشائي في هذا النص يتجلى في النفي والتأكيد، حيث يُستخدم النفي لتأكيد أن الله لا يُشبه المخلوقات ولا يمكن تحديده بالصفات المخلوقة. كما أن النص يُوجه العقل إلى استنتاجات معينة، مما يعطيه طابعاً إنشائياً غير مباشر ويسمى هذا النوع التعبير بالأسلوب الإنشائيّ غير الطَّلبيّ لا يستدعي مطلوباً وقت الطلب (٦).

ومع ذلك، يغلب على النص الأسلوب الخبري، حيث أنه يعتمد على تقرير الحقائق والبراهين العقلية. لكن يمكن أن نجد بعض الجمل التي تحمل طابعًا إنشائيًا، خاصة في النفي أوالتأكيد. إليك بعض الأمثلة المحتملة:

. التعريف :مثل استخدام اللّهِ بالتعريف في قوله: أَوَّلُ عِبادَةِ اللّهِ تَعالى، للدلالة على الذات الإلهية المعروفة. والتنكير :مثل استخدام صِفَةٍ في قوله: «لِشَهادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوق»، للدلالة على العموم. والتقييد: مثل قوله: «لِشَهادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوق»، حيث قيد الموصوف بأنه مخلوق. والقصر: مثل قوله: «فَلَيْسَ اللّهُ تعالى مَنْ عُرِفَ بِالتَّشْبِيهِ ذاتُهُ»، حيث قصر معرفة الله على من لم يشبهه. والفصل :مثل الفصل بين الجمل بأداة وفي قوله: «وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّ لَهُ خالِقاً لَيْسَ بِصِفَةٍ وَلها مَوْصُوفٍ». والوصل :مثل وصل الجمل المتتالية في قوله: «وَشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالْإِقترانِ، وَشَهادَةِ الا قْترانِ بِالْحَدَث». والإيجاز :مثل قوله: «فَلَيْسَ اللّهُ تعالى مَنْ عُرِفَ بِالتَّشْبِيهِ ذاتُهُ»، حيث تم اختصار المعنى في جملة موجزة. والإطناب :مثل قوله: «وَشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالْإِقترانِ، وَشَهادَةِ الا قْترانِ بِالْحَدَثِ»، حيث تم توسيع الكلام لتوضيح المعنى. وتقديم ما حقه التأخير: مثل تقديم «أَوَّلُ عِبادَةِ اللّهِ تَعالى على مَعْرِفَتُهُ» لإبراز أهمية المعرفة كأول عبادة.

نجد في النص تقديم ما يدل على الأهمية :مثل تقديم نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ في قوله: «وَنِظامُ تَوْحيدِ اللّهِ تَعالي نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ»، لإظهار أن نفي الصفات هوأساس التوحيد. والتوكيد: مثل قوله: «وَلا اِيّاهُ أَرادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ»، حيث تم تأكيد نفي الإرادة عمن توهم الله. التفريع والترتيب: مثل قوله: «أَوَّلُ عِبادَةِ اللّهِ تَعالى مَعْرِفَتُهُ، وَاَصْلُ مَعْرِفَةِ اللّهِ تَوْحيدُهُ، وَنِظامُ تَوْحيدِ اللّهِ تَعالي نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ»، حيث تم ترتيب الأفكار بشكل متسلسل. والالتفات: مثل الانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله: «وَلا اِيّاهُ أَرادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ»، حيث تم الالتفات من الحديث عن الله إلى الحديث عن الإنسان.

كذلك نلمس في النص التدرج المنطقي والترتيب الفكري وذلك أن الإمام الرضا (ع) بدأ بذكر أصل العبادة وهومعرفة الله، ثم ينتقل إلى أصل المعرفة وهوالتوحيد، ثم يوضح نظام التوحيد بنفي الصفات عن الله. هذا التسلسل المنطقي يعكس بناءً فكريًا متينًا، حيث يتم الانتقال من العام إلى الخاص، ومن المبدأ الأساسي إلى التفاصيل الدقيقة.

كذلك نجد نفي التشبيه والتجسيد، فالإمام الإمام الرضا (ع) في بيانه يؤكد على نفي الصفات عن الله تعالى، مستندًا إلى أن كل صفة وموصوف مخلوق، وبالتالي لا يمكن أن تنطبق على

الله الذي هوخالق وليس بمخلوق. هذا النفي يعكس فلسفة عميقة في فهم التوحيد، حيث يتم رفض أي تشبيه أوتجسيد للذات الإلهية.

أيضاً نجد الاستدلال العقلي، وذلك أن الإمام الرضا (ع) يعتمد على الاستدلال العقلي لإثبات نفي الصفات عن الله، حيث يشير إلى أن العقول تشهد بأن كل صفة وموصوف مخلوق، وأن كل مخلوق له خالق ليس بصفة ولا موصوف. هذا الاستدلال العقلي يعكس جمالية في استخدام المنطق لإثبات الحقائق الغيبية.

أيضاً التكرار مع التنويع: فالإمام الرضا (ع) استخدم أسلوب التكرار مع تنويع في العبارات، مثل تكرار كلمة شهادة مع تغيير في السياق كل مرة: شهادة العقول، شهادة كل موصوف، شهادة كل صفة وموصوف، شهادة الاقتران، شهادة الحدث. هذا التكرار يعطي قوة للاستدلال ويؤكد على فكرة النفي بشكل متكرر ومتنوع.

أيضاً يظهر لنا الطباق والمقابلة في عدة مواضع، مثل قوله: فليس الله تعالى من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحده من أكنه، حيث يقابل بين معرفة الله بالتشبيه وبين التوحيد الحقيقي. هذا الأسلوب يعطي توازنًا بلاغيًا ويوضح الفرق بين المفاهيم الخاطئة والحقائق الصحيحة.

ويتجلى الإيجاز والاختصار حيث يتميز النص بالإيجاز والاختصار مع وضوح في المعنى، حيث يتم التعبير عن أفكار عميقة ومعقدة بعبارات موجزة ولكنها دقيقة، مثل قوله: وشهادة الحدث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدث. هذا الإيجاز يعكس قدرة الكاتب على التعبير عن الأفكار الفلسفية بعبارات مركزة.

والتصوير العقلي، وذلك إننا نجد الإمام الرضا (ع) يستخدم التصوير العقلي لتوضيح المفاهيم المجردة، مثل تصوير العلاقة بين الصفة والموصوف، وبين الخالق والمخلوق. هذا التصوير يساعد القارئ على فهم الأفكار الفلسفية المعقدة من خلال تشبيهات عقلية واضحة.

وفي التأكيد على التوحيد الخالص يؤكد الإمام الرضا (ع) على أن التوحيد الحقيقي لله لا يمكن أن يتم من خلال التشبيه أوالتمثيل، بل يجب أن يكون نقيًا من أي صفة أوتشبيه. هذا التأكيد يعكس جمالية في الدعوة إلى التوحيد الخالص الذي يتناسب مع عظمة الله تعالى.

في مجال الاستخدام الفني للغة نرى الإمام (ع) يستخدم اللغة العربية الفصيحة بأسلوب فني رفيع، حيث يتم اختيار الكلمات بعناية لتتناسب مع المعاني العميقة التي يتم التعبير عنها. هذا الاستخدام الفني للغة يعطي النص جمالية أدبية وفكرية.كذلك التناسب بين الألفاظ والمعاني: نجد تناسباً واضحاً بين الألفاظ المستخدمة والمعاني التي تحملها، حيث يتم اختيار الكلمات التي

تعبر بدقة عن الأفكار الفلسفية العميقة، مثل نظام توحيد الله، نفي الصفات، شهادة العقول. هذا التناسب يعكس جمالية في التعبير عن الأفكار المعقدة بألفاظ مناسبة.

النص يتميز بجماليات بلاغية وفكرية عميقة، حيث يعكس دقة في التعبير، وتسلسلًا منطقيًا، واستدلالًا عقليًا، وتنوعًا في الأساليب البلاغية، مما يجعله نموذجًا رفيعًا للأدب الفلسفي والديني.

في هذا النص، يمكن استخراج أصول ومباني علم المعاني من خلال تحليل المفاهيم الأساسية التي يتناولها النص، والتيترتبط بفهم الذات الإلهية وصفاتها. فيما يلي أبرز الأصول والمباني:

في مجال أصل المعرفة الإلهية وهي معرفة الله، فالإمام الرضا (ع) يؤكد أن أول عبادة لله هي معرفته، مما يدل على أن المعرفة هي الأساس الذي تُبنى عليه العبادة. معرفة الله تبدأ بتوحيده، أي إثبات وحدانيته ونفي الشرك عنه.

وفي مقام نفي الصفات عن الله يذكر أن نظام التوحيد يقوم على نفي الصفات عن الله، لأن كل صفة وموصوف مخلوق. هذا يدل على أن الله لا يُوصف بصفات المخلوقات، وأن صفاته تختلف عن صفات المخلوقات. ويستشهد بالعقل كدليل على أن كل صفة وموصوف مخلوق، وأن الموصوف له خالق ليس بصفة ولا موصوف. هذا يدل على أن العقل هوأداة لفهم التوحيد ونفي التشبيه عن الله.

وفي إشارة للحدوث والقدم يشير الإمام الرضا (ع) إلى أن كل صفة وموصوف مرتبط بالحدوث، وأن الحدوث يدل على عدم الأزلية. هذا يدل على أن الله ليس محدثًا، بل هوأزلي ولا يتصف بصفات المخلوقات.وينفي التشبيه عن الله، مؤكدًا أن من عرف الله بالتشبيه لم يصب حقيقته. هذا يدل على أن الله لا يُشبه المخلوقات، وأن تشبيه بالمخلوقات خطأ في الفهم.

في بيان التوحيد الحقيقي (الخالص دون الشرك) يؤكد الإمام الرضا (ع) على أن من وحّد الله ولم ينزهه عن التشبيه لم يصب حقيقة التوحيد وهذا يدل على أن التوحيد الحقيقي يتطلب نفي التشبيه ونفي التجزئة عن الذات الإلهية. وفي سياق التذلل لله يذكر الإمام الرضا (ع) أن من جزّء الله أووهمه لم يتذلل له حق التذلل. هذا يدل على أن العبادة الحقيقية تتطلب فهمًا صحيحًا لذات الله وصفاته. وفي مجال الإشارة إلى الله النص ينفي أن من أشار إلى الله أوشبهه قد أدرك حقيقته. هذا يدل على أن الله لا يُدرك بالحواس أوالتشبيه، بل بالإيمان والعقل.

فالأصول والمباني المستخرجة من النص تركز على . أصل المعرفة الإلهية وارتباطها بالتوحيد، ونفي الصفات عن الله لأنها من خصائص المخلوقات، ودور العقل في إثبات التوحيد ونفي التشبيه. ونفي الحدوث عن الله وإثبات أزليته، والتوحيد الحقيقي الذي يتطلب نفي التشبيه والتجزئة والعبادة الصحيحة التي تقوم على الفهم الصحيح لذات الله وصفاته.

هذه الأصول تشكل أساسًا لفهم علم المعاني في هذا النص، حيث يتم التركيز على فهم الذات الإلهية وصفاتها بشكل يتنزه عن التشبيه والمحدودية.

٩ . صنع الله

المقطع التالي من الخطبة يتميز بجماليات عميقة من ناحية علم المعاني، حيث يعتمد على ترتيب الأفكار وتنسيقها بشكل منطقي وفلسفي لإيصال المعاني المراد توصيلها، فيقول الإمام (ع):

«كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قائِمٍ في سِواهُ مَعْلُولٌ .بِصُنْعِ اللّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ. خِلْقَةُ اللّهِ الْخَلْقَ حِجابٌ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ، ومُبايَنَتُهُ اِيّاهُمْ مُفارَقَتُهُ إِنِّيَّتُهُمْ وابْتِداؤُهُ اِيّاهُمْ دَليلُهُمْ عَلي أنْ لا ابْتِداء لَهُ، لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَإٍ عَنِ ابْتِداءِ غَيْرِهِ وأَداتُهُمْ دَليلُهُم عَلي أَنْ لا أَداةَ فيهِ، لِشَهادَةِ الاَدَواتِ بِفاقَةِ الْمُؤَدّينَ» [٧].

فيما يختص بالترتيب المنطقي للأفكار، النص يبدأ بتقرير حقائق عامة وهي: «كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قَائِمٍ في سِوَاهُ مَعْلُولٌ» ثم ينتقل إلى الاستدلال على وجود الله من خلال صنعه (بِصُنْعِ اللّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ)، ثم يربط ذلك بالعقل والفطرة «بِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ» هذا التسلسل يُظهر ترتيبًا منطقيًا يسهل على القارئ فهمه.

نجد في النص استخدام الأدلة العقلية والفطرية: فالنص يعتمد على الأدلة العقلية وذلك في عبارة «بِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ» والفطرية وذلك في قوله: «بِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ» لإثبات وجود الله، مما يُظهر توافقًا بين العقل والفطرة في إدراك الحقائق الإلهية.

أيضاً تترأى لنا ظاهرة التناسب بين الألفاظ والمعاني بوضوح، فالألفاظ المستخدمة في النص تتناسب مع المعاني العميقة التي يُراد إيصالها. مثلاً، استخدام كلمة حِجَاب للإشارة إلى أن خلق الله هوحجاب بينه وبين خلقه، يعكس فكرة العظمة والغموض الإلهي.

ويبرز لنا التضاد والتباين: النص يستخدم التضاد بين الخالق والمخلوق وذلك في عبارة «خِلْقَةُ اللّهِ الْخَلْقَ حِجَابٌ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ» لإظهار الفرق بين الله وخلقه، مما يعمق الفهم ويجذب الانتباه.

. الإيجاز والعمق: النص يتميز بإيجازه مع عمق معانيه، حيث يعبر عن أفكار فلسفية وعقائدية معقدة بكلمات قليلة ولكنها دقيقة، مثل قوله: «لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَإٍ عَنِ ابْتِدَاءِ غَيْرِهِ».

. الاستدلال بالخلق على الخالق: النص يستخدم أسلوب الاستدلال بالخلق على وجود الخالق «**بِصُنْعِ اللّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ**»، وهو أسلوب بلاغي قوي يعتمد على الربط بين المعلول (الخلق) وعلته (الله).

. التأكيد على استقلالية الله: النص يؤكد استقلالية الله عن خلقه (مُفَارَقَتُهُ إِنِّيَّتَهُمْ) وأنه لا يحتاج إلى أدوات أوبداية (لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَإٍ عَنِ ابْتِدَاءِ غَيْرِهِ)، مما يعكس فكرة الألوهية المطلقة.

. الاستشهاد بالعجز البشري: النص يستشهد بعجز المخلوقات عن ابتداء غيرها «لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَإٍ عَنِ ابْتِدَاءِ غَيْرِهِ» لإثبات أن الله هوالوحيد الذي لا يحتاج إلى بداية أوأداة.

. الربط بين الأدوات والعجز: النص يربط بين وجود الأدوات وعجز المؤدين «لِشَهَادَةِ الْأَدَوَاتِ بِفَاقَةِ الْمُؤَدِّينَ»، مما يعكس فكرة أن الله لا يحتاج إلى أدوات لأنه الكامل بذاته.

. التناسب بين المعاني والأهداف: النص يهدف إلى إثبات وجود الله ووحدانيته باستخدام أدلة عقلية وفطرية، وهذا التناسب بين المعاني والأهداف يُظهر جمالية في البناء الفكري للنص.

فالنص المذكور يتميز بجماليات عميقة في علم المعاني، حيث يعتمد على ترتيب منطقي للأفكار، واستخدام أدلة عقلية وفطرية، وإيجاز في التعبير مع عمق في المعاني، مما يجعله نصًا فلسفياً وعقائدياً قويًا ومؤثراً.

وفيما يختص بصفاته العلى وأسمائه الحسنى نجد التعبير التالي:

«فَأَسْمائُهُ تَعْبيرٌ، وَأَفْعالُهُ تَفْهيمٌ، وَذاتُهُ حَقيقَةٌ، وكُنْهُهُ تَفْريقٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ خَلْقِهِ، وغُيُورُهُ تَحْديدٌ لِما سِواهُ. فَقَدْ جَهِلَ اللّهَ مَنِ اسْتَوْصَفَهُ، وقَدْ تَعَدّاهُ مَنِ اشْتَمَلَهُ، وقَدْ اَخْطَأَهُ مَنِ اكْتَنَهَهُ، ومَنْ قالَ: كَيْفَ؟ فَقَدْ شَبَّهَهُ، ومَنْ قالَ: لِمَ؟ فَقَدْ عَلَّلَهُ، ومَنْ قالَ مَتى؟ فَقَدْ وَقَّتَهُ، ومَنْ قالَ: فيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، ومَنْ قالَ: إلى مَ؟ فَقَدْ نَهاهُ، ومَنْ قالَ :حَتّى مَ؟ فَقَدْ غَيّاهُ، ومَنْ غَيّاهُ فَقَدْ عاياهُ، ومَنْ عاياهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، ومَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ وَصَفَهُ، ومَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فيهِ» (٨).

من الناحية البلاغية نجد في النص جمالية فن المعاني في التقييد :مثل قوله: بِصُنْعِ اللّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ.وفي القصر :مثل قوله: ومَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فيهِ حيث قصر الإلحاد على من وصف الله. وفي فن الفصل والوصل :مثل الفصل بين الجمل المتتالية بأداة ق وفن الإيجاز :مثل قوله: ومَنْ قالَ: كَيْفَ؟ فَقَدْ شَبَّهَهُ. حيث تم اختصار المعنى في جملة قصيرة.

هذه العناصر تشكل جزءًا من علم البيان الذي يعتمد على تحسين الكلام وتوضيح المعاني بأسلوب بلاغي. ويتميز هذا النص بجماليات بلاغية وعلم معاني عميق، حيث يعكس دقة في التعبير وفلسفة عميقة في تناول موضوع الذات الإلهية وصفاتها. فيما يلي بعض الجماليات البلاغية وعناصر علم المعاني التي يمكن استخراجها من النص:

نجد التدرج المنطقي والترتيب الفكري، حيث يبدأ كلام الإمام الرضا (ع) بذكر أن كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في غيره معلول، ثم ينتقل إلى الاستدلال على وجود الله من خلال

صنعه، ثم يذكر دور العقل والفطرة في معرفته. هذا التسلسل المنطقي يعكس بناءً فكريًا متينًا، حيث يتم الانتقال من المقدمات إلى النتائج بشكل متسق.

ونلمس الاستدلال العقلي والفطري، وذلك إن الإمام الرضا (ع) يعتمد على الاستدلال العقلي والفطري لإثبات وجود الله، حيث يشير إلى أن صنع الله يدل عليه، وأن العقول تعتقد معرفته، وأن الفطرة تثبت حجته. هذا الجمع بين العقل والفطرة يعكس جمالية في الاستدلال على الحقائق الغيبية.

كذلك نفي الحدوث والافتقار عن الله ويعني ذلك أن الإمام الرضا (ع) يؤكد على أن الله ليس بمحدث ولا مفتقر إلى شيء، حيث يقول: ابتداؤه إياهم دليلهم على أن لا ابتداء له، وأداتهم دليلهم على أن لا أداة فيه. هذا النفي يعكس فلسفة عميقة في فهم الذات الإلهية وصفاتها.

وتظهر لنا ظاهرة التكرار مع التنويع، فالإمام الرضا (ع) يستخدم أسلوب التكرار مع تنويع في العبارات، مثل تكرار كلمة دليل في قوله: دليلهم على أن لا ابتداء له، ودليلهم على أن لا أداة فيه. هذا التكرار يعطي قوة للاستدلال ويؤكد على فكرة النفي بشكل متكرر ومتنوع.

أيضا نجد ظاهرة الطباق والمقابلة: وذلك أن الإمام الرضا (ع) استخدم الطباق والمقابلة في عدة مواضع، مثل قوله: كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، حيث يقابل بين المعروف بنفسه والقائم في غيره. هذا الأسلوب يعطي توازنًا بلاغيًا ويوضح الفرق بين المخلوق والخالق.

ونجد فن الإيجاز والاختصار، فالنص أعلاه يتميز بالإيجاز والاختصار مع وضوح في المعنى، حيث يتم التعبير عن أفكار عميقة ومعقدة بعبارات موجزة ولكنها دقيقة، مثل قوله: خلقة الله الخلق حجاب بينه وبينهم. هذا الإيجاز يعكس قدرة الكاتب على التعبير عن الأفكار الفلسفية بعبارات مركزة.

وفيما يختص بالتصوير العقلي نجد الإمام الرضا (ع) يستخدم هذا النوع من الفن لتوضيح المفاهيم المجردة، مثل تصوير خلق الله للخلق كحجاب بينه وبينهم. هذا التصوير يساعد القارئ على فهم الأفكار الفلسفية المعقدة من خلال تشبيهات عقلية واضحة.

كذلك التأكيد على استقلالية الله، فالإمام الرضا (ع) يؤكد على أن الله مستقل عن خلقه، حيث يقول: «ابتداؤه إياهم دليلهم على أن لا ابتداء له، وأداتهم دليلهم على أن لا أداة فيه» وهذا التأكيد يعكس جمالية في الدعوة إلى فهم الذات الإلهية بشكل صحيح.

فجاء في النص توظيف اللغة العربية الفصيحة بأسلوب فني رفيع، حيث يتم اختيار الكلمات بعناية لتتناسب مع المعاني العميقة التي يتم التعبير عنها. هذا الاستخدام الفني للغة يعطي

النص جمالية أدبية وفكرية. كذلك التناسب بين الألفاظ والمعاني، فهناك تناسب واضح بين الألفاظ المستخدمة والمعاني التي تحملها، حيث يتم اختيار الكلمات التي تعبر بدقة عن الأفكار الفلسفية العميقة، مثل مصنوع، معلول، حجاب، مفارقة. هذا التناسب يعكس جمالية في التعبير عن الأفكار المعقدة بألفاظ مناسبة.

وفي مجال نفي التشبيه والتجسيد، نرى التعبير يؤكد على أن الله ليس كمخلوقاته، حيث يقول: «خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم»، فهذا النفي يعكس فلسفة عميقة في فهم التوحيد، حيث يتم رفض أي تشبيه أوتجسيد للذات الإلهية.

كذلك التأكيد على دور الفطرة، فالنص يذكر أن الفطرة تثبت حجة الله، مما يعكس جمالية في الربط بين الفطرة الإنسانية والإيمان بالله. هذا الربط يعطي النص بعداً إنسانياً وعمقاً فلسفياً.

فالمقطع المذكور بدلالاته المتنوعة يتميز بجماليات بلاغية وفكرية عميقة، حيث يعكس دقة في التعبير، وتسلسلًا منطقيًا، واستدلالًا عقليًا، وتنوعًا في الأساليب البلاغية، مما يجعله نموذجًا رفيعًا للأدب الفلسفي والديني.

والمقطع التالي يقدم أروع صور التنزيه الإلهي، حيث يصف الذات الإلهية بصفات الكمال مع نفي كل أشكال التشبيه والمحدودية ويعتمد على أسلوب المقابلة بين إثبات الصفات ونفي كيفية إثباتها، ليؤكد أن الله تعالى:

«ولا يَتَغَيَّرُ اللّـهُ بِانْغِيارِ الْخَلْقِ كَمالا يَتَحَدَّدُ بِتَحْديدِ الْمَحْدُودِ .اَحَدٌ لا بِتَأويلِ عَدَدٍ، ظاهِرٌ لا بِتَأَويلِ الْمُباشَرَةِ، مُتَجَلٍّ لا بِاسْتِهْلال رُؤْيَةٍ، باطِنٌ لا بِمُزايَلَةٍ، مُباينٌ لا بِمَسافَةٍ، قَريبٌ لا بِمُداناةٍ، لَطيفٌ لا بِتَجَسُّمٍ، مَوْجُودٌ لا بَعْدَ عَدَمٍ، فاعِلٌ لا بِاضْطِرارٍ، مُقَدِّرٌ لا بِحَوْلٍ فِكْرَةٍ، مُدَبِّرٌ لا بِحَرَكَةٍ، مُريدٌ لا بِهَمامَةٍ، شاءٍ لا بِهِمَّةٍ، مُدْرِكٌ لا بِمِحَسَّةٍ، سَميعٌ لا بِآلَةٍ، بَصيرٌ لا بِاَداةٍ» [٩].

والهمامة القصد. والْهِمَّةُ: واحدة الهِمَمِ. يقال: فلانٌ بعيد الهِمَّةِ أيضاً بالفتح[١٠]. وهَمَمْتُ بالشئ أَهُمُّ هَمًّا، إذا أردته.

فالله سبحانه وتعالى لا يتغير بتغير المخلوقات ولا يحد كما تحد المخلوقات وموصوف بصفات الكمال دون أن تكون على طريقة المخلوقات

فالأحدية تعني أنه أَحَدٌ لا بِتَأْوِيلِ عَدَدٍ، والإثبات: هوالأحدية لذاته، والنفي: أن تكون أحدية عددية. و**الظهور والبطن** يقصد أنه ظَاهِرٌ لا بِتَأْوِيلِ الْمُبَاشَرَةِ، بَاطِنٌ لا بِمُزَايَلَةٍ، والإثبات: الظهور والبطن، والنفي: أن يكون ظاهرا بالمباشرة أوباطنا بالمزايلة، و**القرب واللطف** :قَرِيبٌ لا بِمُدَانَاةٍ، لَطِيفٌ لا بِتَجَسُّمٍ، والإثبات: القرب واللطف، والنفي: أن يكون قربا مكانيا أولطفا ماديا.

وظف الإمام أسلوب المقابلة لبيان الصفات حيث كل صفة إيجابية يقابلها نفي للتشبيه وذلك في قوله: «سَمِيعٌ لا بِآلَةٍ، بَصِيرٌ لا بِأَدَاةٍ»، كذلك الطباق: بين الظهور والبطن في عبارات: ظَاهِرٌ... بَاطِنٌ وبين القرب والمباعدة: مُبَايِنٌ... قَرِيبٌ، ونجد في التعبيرالإيجاز والبلاغة وذلك أن كل جملة تحوي معنى كاملا في بضع كلمات: مُدَبِّرٌ لا بِحَرَكَةٍ. ونجد في النص التكرار المعنوي: وهوتكرار أسلوب النفي بعد الإثبات في كل الصفات.

والمقطع يتميز بالفوائد العقدية، حيث يتراءى لنا تنزيه الذات عن التغير والحدود وإثبات الصفات بدون تشبيه والتفريق بين صفات الخالق والمخلوق والدقة في استخدام المصطلحات العقدية ونجد في النص نموذجا رفيعا للتوحيد الخالص، حيث يجمع بين: الإثبات: بإثبات صفات الكمال التنزيه: بنفي مشابهة المخلوقات، كذلك نجد الدقة التامة باختيار الألفاظ الموحية وهذا يتفق تماما مع منهج أهل البيت (ع) في التوحيد، الذي يجمع بين التنزيه المعقول والإثبات المنقول دون وقوع في التشبيه أوالتعطيل.

وفي المقطع التالي من الخطبة نجد التأكيد في كلام الإمام (ع) على المفاهيم الأساسية للتوحيد العلوي من خلال نفي الصفات المخلوقة عن الذات الإلهية، وإثبات كمالاتها المطلقة. فهوينفي عن الله تعالى كل ما يشير إلى الحدوث أوالتغير أوالحاجة، ويثبت له صفات الأزلية والوجود المطلق، فيقول:

«لا تَصْحَبُهُ الأَوْقاتُ، وَلا تَضَمَّنَهُ الأماكِنُ، وَلا تَأْخُذُهُ السِّناتُ (السُّباتُ، خ ل)، وَلا تَحُدُّهُ الصِّفاتُ، وَلا تُقَيِّدُهُ الادَوات سابقَ الأَوْقاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالإبتداءَ اَزَلُهُ».(١١).

هذا النص يعكس المنهج العلوي في التوحيد الذي يرفض التشبيه والتعطيل، ويؤكد أن الله ليس كمثله شيء مع ثبوت أسمائه وصفاته الحسنى. فالسنات جمع السنة لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿**اللَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ هُوالْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ**﴾(١٢). أي لا تستولي عليه الفترة المعبّر عنها بالنعاس الذي يتقدم النوم، ولذا قدّمها عليه بقوله: ولا نَوْمٌ (١٣).

ويقصد بالسبات النوم، قال الله تعالى: ﴿**هُوالَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً والنَّوْمَ سُباتاً وجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً**﴾ (١٤). والسبات له معان متعددة في اللغة ناشئة عن التوسع في مادة السبت وهوالقطع. **وأنسب المعاني بمقام الامتنان هومعنى الراحة** وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع اللّه تعالى. وفسر الزمخشري السبات بالموت على طريقة التشبيه البليغ ناظرا في ذلك إلى مقابلته بقوله: وجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (١٥) **وقوله تعالى:** ﴿**وجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً**﴾ (١٦).

عبارة «لا تَصْحَبُهُ الأَوْقاتُ» تدل على **نفي التغير الزماني**، أي إن الله خارج إطار الزمان، فلا يحده ماضٍ أوحاضر أومستقبل. وَلا تَأْخُذُهُ السِّناتُ: لا يعتريه نوم أوغفلة (كما في قراءة السُّبات).

وعبارة «وَلا تَضَمَّنَهُ الأماكِنُ» تدل على نفي التحديد المكاني، أي لا يحويه مكان، فهوغير ممتد في الأبعاد المكانية. وَلا تُقَيِّدُهُ الأدَوات: لا يحتاج إلى وسائل أوأدوات كالمخلوقات. وفي عبارة «سابَقَ الأَوْقاتَ كَوْنُهُ» يوجد نفي الحدوث والانقطاع، أي وجوده سابق على خلق الزمان نفسه. وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ: الوجود الإلهي ينفي العدم أصلاً (لا عَدَمَ له). وَالإبتداءَ اَزَلُهُ: لا بداية لوجوده، فهو أزلي.

ومن الناحية البلاغية نجد الإمام وظف أسلوب النفي المتتابع: حيث استخدام لا النافية للجنس في قوله: «لا تَصْحَبُهُ، لا تَضَمَّنَهُ، لا تَأْخُذُهُ»، مما يعطي قوة في نفي النقائص. والطباق (المقابلة): بين سابَقَ الأَوْقاتَ (القدم) والإبتداءَ (نفي البداية). بين الْعَدَمَ ووُجُودُهُ. والإيجاز المكثف حيث نرى كل جملة تحوي معنى عقدياً كاملاً، مثل: وَلا تَحُدُّهُ الصِّفاتُ (نفي التحديد مع إثبات الصفات بلا كيف). والانزياح الدلالي في قوله: وَالإبتداءَ اَزَلُهُ: جمع بين نفي البدء (الإبتداءَ) وإثبات الأزلية (اَزَلُهُ) في تركيب واحد.

فتلخيص الفوائد العقدية في المقطع المذكور تكون في كل من: تنزيه الله عن الزمان والمكان: لا يحده زمان لأنه خالق الزمان، ولا مكان لأنه خالق المكان، وإثبات الأزلية والوجود المطلق وجوده ليس مسبوقاً بعدم، وليس له بداية، ونفي الصفات المخلوقة: صفاته لا تشبه صفات المخلوقات، فلا كيفية لها، والتفريق بين الخالق والمخلوق: المخلوق محدود بالزمان والمكان والصفات، والخالق منزه عن ذلك كله.

قدم لنا الإمام (ع) نموذجاً راقياً للتوحيد الخالص، حيث: يجمع بين النفي (تنزيه الله عن النقائص) والإثبات في إثبات كمالاته المطلقة، ونراه يستخدم أسلوباً منطقياً في بناء الأدلة العقلية. ويبتعد عن التشبيه مع إثبات الصفات الحقيقية لله.

كذلك نجد التعبير البلاغي في آلية تقديم الجار والمجرور للحصر والتأكيد في المقطع التالي: **«بِتَشْعيرِهِ الْمَشاعِرَ عُرِف أَنْ لا مَشْعَرَلَهُ، وبِتَجْهيرِهِ الْجَواهِرَ عُرِفَ أَنْ لا جَوْهَرَ لَهُ، وبِمُضادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْياءِ عُرِف أَنْ لا ضِدَّلَهُ، وبِمُقارَنَتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أنْ لا قَرينَ لَهُ»** [١٧].

ضادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْجَلايَةَ بِالْبُهْمِ، والْجَفَّ بِالْبَلَلِ، والصَّرْدَ بِالْحَرُورِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعادِياتِها، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدانِياتِها، دالَّةٌ بِتَفْريقِها عَليه مُفَرِّقِها، وبِتَأْليفِها، عَليه مُؤَلِّفِها، ذلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ومِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ﴾ [١٨]

اي الأمور المشكلة. الحس وبالحاء المهملة: ما تنشفه الأرض. وفي نسخة: (الجف) بدل (الحسو). (الصرد: البرد وهو ضد الحر)

المقطع المذكور يعتمد بشكل كبير على أسلوب الخبر لتقرير الحقائق، مثل: بِتَشْعيرِهِ الْمَشاعِرَ عُرِف أَنْ لا مَشْعَرَلَهُ، وبِتَجْهيرِهِ الْجَواهِرَ عُرِفَ أَنْ لا جَوْهَرَ لَهُ هذه الجمل خبرية تُقرر حقائق عن الله وصفاته، كذلك أسلوب الإنشاء (النفي): النص يستخدم أسلوب النفي لتأكيد أن الله لا يشبه المخلوقات، مثل: عُرِف أَنْ لا مَشْعَرَلَهُ، وعُرِفَ أَنْ لا جَوْهَرَ لَهُ، وعُرِف أَنْ لا ضِدَّلَهُ. هذا النفي يُستخدم لتأكيد تنزيه الله عن الصفات المخلوقة.

أيضاً نجد التقديم والتأخير لإبراز المعاني، مثل تقديم الفعل **عُرِف** في الجمل: **عُرِف أَنْ لا مَشْعَرَلَهُ، عُرِفَ أَنْ لا جَوْهَرَ لَهُ.** هذا التقديم يُظهر أهمية المعرفة والإدراك في إثبات الحقائق. كذلك التكرار: فالنص يستخدم التكرار لإظهار التضاد بين صفات الله وصفات المخلوقات، مثل تكرار أسلوب النفي: **عُرِف أَنْ لا مَشْعَرَلَهُ، عُرِفَ أَنْ لا جَوْهَرَ لَهُ، عُرِف أَنْ لا ضِدَّلَهُ.** هذا التكرار يُعزز فكرة تنزيه الله عن الصفات المخلوقة.

والتضاد: النص يعتمد على التضاد لإظهار عظمة الله، مثل: **ضادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْجَلايَةَ بِالْبُهْمِ، والْجَفَّ بِالْبَلَلِ، والصَّرْدَ بِالْحَرُورِ** هذا التضاد يُظهر قدرة الله على خلق الأضداد وتسييرها. **والتأليف والتفريق:** النص يستخدم أسلوب التأليف والتفريق في قوله: **مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعادِياتِها، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدانِياتِها.** هذا الأسلوب يُظهر قدرة الله على جمع المتضادات وتفريق المتقاربات، مما يدل على عظمته.

والنص يستخدم أسلوب الاستدلال بالخلق على وجود الخالق، مثل قوله: **دالَّةٌ بِتَفْرِيقِها عَلَيه مُفَرِّقِها، وبِتَأْلِيفِها، عَلَيه مُؤَلِّفِها.** هذا الأسلوب يعتمد على الربط بين المخلوقات وخالقها.

أيضاً نجد الاقتباس القرآني: النص يختتم بآية قرآنية: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ﴾ [١٩]. هذا الاقتباس يعزز المعنى الذي يتحدث عنه النص، وهوخلق الأضداد والأزواج، والإيجاز والعمق: النص يتميز بإيجازه مع عمق معانيه، حيث يعبر عن أفكار فلسفية وعقائدية معقدة بكلمات قليلة ولكنها دقيقة. **كذلك نجد التناسب بين الألفاظ والمعاني:** الألفاظ المستخدمة في النص تتناسب مع المعاني العميقة التي يُراد إيصالها، مثل استخدام كلمات تشعير، تجهير، مضادة، مقارنة، والتي تعكس دقة في التعبير عن المعاني.

فالمقطع المذكور من الخطبة التوحيدية يتميز باستخدامه لمباني علم المعاني بشكل بارع، حيث يعتمد على أسلوب الخبر والنفي والتقديم والتأخير والتكرار والتضاد، بالإضافة إلى أسلوب التأليف والتفريق والاستدلال بالخلق على الخالق. هذه الأساليب تجعل النص غنيًا بالمعاني العميقة، مما يعكس جمالية في التعبير وفصاحة في الأسلوب.

«فَفَرَّقَ بِها بَيْنَها وبَيْنَ قَبْلٍ وبَعْدٍ، لِيَعْلَمَ أَنْ لا قَبْلَ لَهُ ولا بَعْدَ .شاهِدَةٌ بِغَرائِزِها أَنْ لا غَريزَةَ لِمُغَرِّزِها، دالَّةٌ بِتَفاوُتِها أَنْ تَفاوُتَ لِمُفاوِتِها، مُخْبِرَةٌ بِتَوْقيتِها أَنْ لا وَقْتَ لِمُوقِّتِها، حَجَبَ بَعْضَها عَنْ بَعْضٍ، لِيُعْلَمَ أَنْ لا حِجابَ بَيْنَهُ وبَيْنَها غَيْرُها»[٢٠]

نجد في النصوص المذكورة والتالية الملاءمة التامة بين السياق والمعنى المراد.

١٠ . الربوبية

«لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ إِذْ لامَرْبُوبَ، وحَقيقَةُ الإِلهيَّةِ إِذْ لا مَأْلُوهَ، ومَعْنَى الْعالِمِ ولا مَعْلُومَ، ومَعْنَى الْخالِقِ ولا مَخْلُوقَ، وتَأويلُ السَّمْعِ ولا مَسْمُوعَ؛ لَيْسَ مُذْ خَلَقَ اسْتَحَقَّ مَعْنَى الْخالِقِ، ولا بِاحْداثِهِ الْبَرايَا اسْتَفادَ مَعْنَى الْبَرائيَّةِ . كَيْفَ؟ وَلا تُغَيِّيهِ مُذْ، ولا تُدْنيهِ قَدْ، ولا يَحْجُبُهُ لَعَلَّ، ولا يُوَقِّتُهُ مَتى، ولا يَشْتَمِلُهُ حينٌ، ولا يُقارِنُهُ مَعَ» [٢١].

الربوبية: مصدر انتزاعي كالألوهية مع ياء النسبة وتاء المصدرية

في هذا االمقطع يعتمد كلام الإمام (ع) بشكل كبير على أسلوب الخبر لتقرير الحقائق، وذلك في قوله: «فَفَرَّقَ بِها بَيْنَها وبَيْنَ قَبْلٍ وبَعْدٍ، شاهِدَةٌ بِغَرائِزِها أَنْ لا غَريزَةَ لِمُغَرِّزِها» فهذه الجمل خبرية تُقرر حقائق عن الله وصفاته. كذلك نجد أسلوب النفي لتأكيد أن الله لا يشبه المخلوقات، وذلك في قوله: «لَيْسَ مُذْ خَلَقَ اسْتَحَقَّ مَعْنَي الْخالِقِ» وقوله: ولا بِاحْداثِهِ الْبَرايَا اسْتَفادَ مَعْنَي الْبَرهائيَّةِ» وهذا النفي يُستخدم لتأكيد تنزيه الله عن الصفات المخلوقة.

كذلك آلية التقديم والتأخير لإبراز المعاني، مثل تقديم الفعل فَفَرَّقَ في الجملة: فَفَرَّقَ بِها بَيْنَها وبَيْنَ قَبْلٍ وبَعْدٍ، وهذا التقديم يُظهر أهمية التفريق والتمييز في إثبات الحقائق. والتكرار لإظهار التضاد بين صفات الله وصفات المخلوقات، مثل تكرار أسلوب النفي وذلك في قوله: «لَيْسَ مُذْ خَلَقَ اسْتَحَقَّ مَعْنَى الْخالِقِ، ولا بِاحْداثِهِ الْبَرايَا اسْتَفادَ مَعْنَى الْبَرهائيَّةِ» وهذا التكرار يُعزز فكرة تنزيه الله عن الصفات المخلوقة. أيضاً نجد في النص فن **التضاد** وذلك لإظهار عظمة الله، في قوله: «**حَجَبَ بَعْضَها عَنْ بَعْضٍ، لِيُعْلَمَ أَنْ لا حِجابَ بَيْنَهُ وبَيْنَها غَيْرُها**» وهذا التضاد يُظهر قدرة الله على خلق الحجب والفواصل بين الأشياء. أيضاً نجد فن **التأليف والتفريق** في قوله: «**فَفَرَّقَ بِها بَيْنَها وبَيْنَ قَبْلٍ وبَعْدٍ.**» وهذا الأسلوب يُظهر قدرة الله على التفريق بين الأشياء وإظهار الفواصل الزمنية.

ومن ناحية الأدلة العقلية والبيانية نجد في النص الاستدلال بالخلق على الخالق في قوله: «شاهِدَةٌ بِغَرائِزِها أَنْ لا غَريزَةَ لِمُغَرِّزِها» فهذا الأسلوب يعتمد على الربط بين المخلوقات وخالقها والإيجاز والعمق . النص يتميز بإيجازه مع عمق معانيه، حيث يعبر عن أفكار فلسفية وعقائدية معقدة بكلمات قليلة ولكنها دقيقة، والتناسب بين الألفاظ والمعاني مثل استخدام كلمات فَرَّقَ،

شاهِدَةٌ، حَجَبَ، والتي تعكس دقة في التعبير عن المعاني، والاستفهام البلاغي وذلك في قوله: كَيْفَ؟ وَلا تُغَيِّبِهِ مُذْ، ولا تُدْنيهِ قَدْ، ولا يَحْجُبُهُ لَعَلَّ، ولا يُوَقِّتُهُ مَتيه، ولا يَشْتَمِلُهُ حينٌ، ولا يُقارِنُهُ مَعَ» وهذا الاستفهام يُستخدم للتأكيد على استحالة إحاطة العقل بصفات الله.

فالنص يتميز باستخدامه لمباني علم المعاني بشكل بارع، حيث يعتمد على أسلوب الخبر والنفي والتقديم والتأخير والتكرار والتضاد، بالإضافة إلى أسلوب التأليف والتفريق والاستدلال بالخلق على الخالق. هذه الأساليب تجعل النص غنيًا بالمعاني العميقة، مما يعكس جمالية في التعبير وفصاحة في الأسلوب.

ومن ناحية التحليل الفلسفي فهذا المقطع من الخطبة التوحيدية يتناول صفات الذات الإلهية بطريقة تنزيهية عميقة، مع التركيز على التعالي المطلق لله تعالى عن كل المقولات الزمانية والمكانية والوجودية المحدودة. فالربوبية هنا لا تعني العلاقة مع المخلوقات (المربوب)، بل هي صفة ذاتية لله تعالى قبل الخلق وأزلاً. أي أن الله هوالرب بذاته، لا لأنه يربّي مخلوقات، بل لأن الربوبية كمال ذاتي فيه، حتى لولم يكن هناك مخلوقات.

فعبارة ((حَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةِ إِذْ لَا مَأْلُوهَ)) تعني أن الألوهية هنا ليست لأن هناك عابدين (مألوه)، بل هي حقيقة قائمة في ذاته تعالى. أي أن الله مُستحق للعبادة بذاته، حتى لولم يوجد مخلوق ليعبده. هذا يتجاوز الفهم الأرسطي للعلة الفاعلة (التي تتطلب معلولًا)، ويؤكد أن صفات الله غير مرتبطة بوجود العالم.

والصفات مثل الخالق والعالم ليست مكتسبة بسبب فعل الخلق أوالعلم (أي ليست صفات فعلية ناتجة عن العلاقة مع المخلوقات)، بل هي صفات ذاتية أزلية. في الفلسفة الإسلامية (خاصة عند الصدراء والملا صدرا): الله يعلم بذاته لا بالمعلومات، ويخلق بإرادته لا بحاجة

وعبارة: «**لَيْسَ مُذْ خَلَقَ اسْتَحَقَّ مَعْنَى الْخَالِقِ**: الخلق لا يضيف صفة جديدة لله، بل هوتجلٍّ لإرادته الأزلية. أي إنَ فعل الخلق ظهر في الزمان، لكن صفة الخالق أزلية.

من ناحية التعالي عن الزمان والمكان، **يقول: لَا تُغَيِّبِهِ مُذْ، وَلَا تُدْنِيهِ قَدْ**: مُذْ (منذ) وقَدْ (في الماضي) هما أدوات زمنية، والله منزّه عن التقييد بالزمان. لا يُقال كان الله كذا منذ وقت، لأن الزمان مخلوق وهوسابق عليه. **وَلَا يُوقِّتُهُ مَتَى**: متى سؤال عن الزمان، والله غير خاضع لمتى أوأين، لأنه خالق الزمان والمكان. **وَلَا يَحْجُبُهُ لَعَلَّ**: لعل تفيد الشك أوالاحتمال، والله لا يحجبه احتمال لأنه مطلق العلم واليقين. **وَلَا يَشْتَمِلُهُ حِينٌ**: حين لحظة زمنية، والله لا يحويه زمان لأنه هوخالق الزمان. **وَلَا يُقَارِنُهُ مَعَ**: المقارنة تفيد العلاقة مع شيء آخر، والله لا يُقاس بغيره (كما في نظرية الوحدة الوجودية المعدلة عند العرفاء).

فالإمام الرضا (ع) يقدم هنا **نموذجًا تنزيهيًا متطرفًا** (بالمعنى الإيجابي)، حيث: الذات الإلهية **مطلقة**، لا تتوقف صفاتها على العلاقة مع المخلوقات. والصفات (كالعلم والخلق) **ذاتية**، لا تُفهم بالقياس إلى المخلوقات. والزمان والمكان **مخلوقان**، فلا يُسأل عن الله بمتى أوأين. هذا يتوافق مع فلسفة **ابن سينا** في الواجب الوجود الذي لا يتعلق بالممكنات، ومع **العرفان الإسلامي** (كابن عربي) في أن الله لا يُعرف إلا بالتنزيه.

فهذا المقطع من الخطبة يُعتبر تأصيلًا للتوحيد الخالص، حيث حتى المفاهيم التي نستخدمها لوصف الله (كالخالق والرب) يجب أن تُفهم في إطار تنزيهه عن الحاجة إلى المخلوقات.

أيضاً المقطع التالي من خطبة الإمام الرضا (ع) يتناول علاقة الأدوات المعرفية (مثل العقل واللغة) بالذات الإلهية، ويطرح إشكالية كيفية إدراك المحدود (الإنسان) للمطلق (الله):

«اِنَّما تَحُدُّ الاَدَواتُ أَنْفُسَها، وتُشيرُ الأَلَةُ اِليه نَظائِرِها، وفِي الْأَشْياءِ يُوْجَدُ أَفْعالُها. مَنَعَتْها مُذُ الْقِدْمَةَ، وحَمَتْها قَدِ الازَلِيَّةَ. لَوْلاَ الْكِلَمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَليه مُفَرِّقِها وتَبايَنَتْ فَأَعْرَبَتْ عَنْ مُبايِنِها، لَما (بِها، خ ل) تَجَلَّيه صانِعُها. لِلْعُقُولِ. وبِها احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤيَةِ، واِلَيْها تَحكَمَ الأَوْهامُ، وفِيها أُثْبِتَ غَيْرُهُ، ومِنْها انْبِطَ الدَّليلُ، وبِها عَرَّفَهَا الإقْرارَ وبِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ التَّصْديقُ بِاللهِ، وبِالإقْارِ يَكْمُلُ الايمانُ بِهِ»[٢٢].

في هذا النص يمكن استخراج نماذج من مباني علم المعاني من خلال تحليل الأساليب المستخدمة ومدى ملاءمتها للمعنى والسياق.

نجد في النص أسلوب الخبر: حيث يعتمد النص في جميع فقراته بشكل كبير على أسلوب الخبر لتقرير الحقائق، مثل قوله: « **اِنَّما تَحُدُّ الاَدَواتُ أَنْفُسَها، وفِي الْأَشْياءِ يُوْجَدُ أَفْعالُها**» فهذه الجمل خبرية تُقرر حقائق عن الأدوات والأشياء. **كذلك نجد** أسلوب النفي لتأكيد أن الله لا يشبه المخلوقات، مثل قوله:« **لَوْلاَ الْكِلَمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَليه مُفَرِّقِها**» وهذا النفي يُستخدم لتأكيد أن الله لا يمكن إدراكه إلا من خلال دلائل خلقه.

كذلك فن التقديم والتأخير لإبراز المعاني، مثل تقديم الفعل تَحُدُّ في عبارة: «اِنَّما تَحُدُّ الاَدَواتُ أَنْفُسَها» وهذا التقديم يُظهر أهمية الأدوات في إظهار نفسها. أيضاً التكرار لإظهار التضاد بين صفات الله وصفات المخلوقات، مثل تكرار أسلوب النفي: في قوله: «لَوْلاَ الْكِلَمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَليه مُفَرِّقِها» وهذا التكرار يُعزز فكرة أن الله لا يمكن إدراكه إلا من خلال دلائل خلقه. وظاهرة التضاد: حيث يعتمد النص على التضاد لإظهار عظمة الله، مثل قوله:« وبِها احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤيَةِ»، وهذا التضاد يُظهر قدرة الله على الاحتجاب عن الرؤية مع وجود دلائل خلقه.

أيضاً التأليف والتفريق: وذلک في قوله: «لَوْلاَ الْكِلَمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَليه مُفَرِّقِها» وهذا الأسلوب يُظهر قدرة الله على التفريق بين الأشياء وإظهار دلائل خلقه. والاستدلال بالخلق على الخالقمثل قوله: «وبِها احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤيَةِ» وهذا الأسلوب يعتمد على الربط بين المخلوقات وخالقها. والإيجاز والعمق حيث يعبر عن أفكار فلسفية وعقائدية معقدة بكلمات قليلة ولكنها دقيقة. والتناسب بين الألفاظ والمعاني مثل استخدام كلمات تَحُدُّ، افْتَرَقَتْ، احْتَجَبَ، والتي تعكس دقة في التعبير عن المعاني. والاستفهام البلاغي: النص يستخدم الاستفهام البلاغي في قوله: «لَوْلاَ الْكِلَمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَليه مُفَرِّقِها» هذا الاستفهام يُستخدم للتأكيد على استحالة إحاطة العقل بصفات الله.

النص يتميز باستخدامه لمباني علم المعاني بشكل بارع، حيث يعتمد على أسلوب الخبر والنفي والتقديم والتأخير والتكرار والتضاد، بالإضافة إلى أسلوب التأليف والتفريق والاستدلال بالخلق على الخالق. هذه الأساليب تجعل النص غنيًا بالمعاني العميقة، مما يعكس جمالية في التعبير وفصاحة في الأسلوب.

ومن الناحية العقلية فالنص غني بالدلالات الفلسفية والكلامية، وسنحلله عبر المحاور التالية:

تظهر محدودية الأدوات المعرفية في إدراك الله في قوله: «إِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا: الأدوات (مثل العقل أو اللغة) تُحدّ ذاتها بمحدوديتها، أي أنها عاجزة عن إدراك اللامحدود (الله). إشارة إلى أن المعرفة البشرية مقيدة بحدود الزمان والمكان والعلّية، بينما الله يتجاوزها. وقوله: «وتُشِيرُ الْآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا» فالأدوات تشير فقط إلى ما يشبهها (مثل: اللغة تصف ما هومحسوس)، لكن الله ليس نظيرًا للمخلوقات. وهذا يُذكر بنظرية التمثيل الرمزي عند العرفاء: كل ما نعرفه عن الله هومجرد رموز (أسماء وصفات)، وليس ذاتَه.

ويظهر لنا دور الكلمة (اللغة والعقل) في الإشارة إلى الله في قوله: «لَوْلَا الْكَلِمَةُ افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَلَيْهِ مُفَرِّقَهَا: الكلمة هنا قد تعني الوحي أوالمنطق العقلي الذي يُفرّق بين الخالق والمخلوق. وبفضل الكلمة (كلام الله أوالعقل)، نستدل على وجوده، لكنها أيضًا تُظهر تباينه عن المخلوقات (تَبَايَنَتْ فَأَعْرَبَتْ عَنْ مُبَايِنِهَا).

وفي قوله: لَمَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ: التجلّي الإلهي للعقول يتم عبر هذه الكلمة، لكنه يبقى حجابًا في نفس الوقت (وَبِهَا احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤْيَةِ) كذلک نجد إشارة إلى فكرة الحجاب والنور في العرفان: الله يتجلّى بالعقل، لكن العقل نفسه حجاب لأنه لا يدرك حقيقة الذات الإلهية.

أيضاً يثبت لنا مقولة العقل بين الإثبات والنفي في قوله: وَفِيهَا أُثْبِتَ غَيْرُهُ: أي إن العقل يثبت وجود الله عبر نفي المحدوديات (أُثْبِتَ غَيْرُهُ أي نفي التشبيه). هذا يتوافق مع منهج الاسلوب (النفي) في الكلام الإسلامي، حيث نثبت الله بنفي النقائص عنه.

وقوله: وَمِنْهَا انْبَطَ الدَّلِيلُ: العقل هوأصل الاستدلال على الله، لكنه دليل غير مباشر (كالاستدلال بالآثار على المؤثر).

وقوله: وَبِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ التَّصْدِيقُ بِاللهِ: التصديق بالله يبدأ بالعقل، لكنه لا يكتمل إلا بالإيمان (وَبِالْإِقْرَارِ يَكْمُلُ الْإِيمَانُ).

تمييز بين المعرفة العقلية (التي تثبت الوجود) والإيمان القلبي (الذي يتجاوز البرهان).

وحول الأوهام وإشكالية التصور الذهني لكسب المعرفة يقول: وَإِلَيْهَا تَحَكَّمَ الْأَوْهَامُ: الأوهام (التصورات الذهنية) تحاول أن تُخضع الله لمقولات بشرية، لكنها تفشل لأنه لا يُدرك بالخيال. نقد التجسيم أوالتشبيه في الفكر الديني، حيث يحاول البعض تصوير الله بشكل مادي.

يقدم الإمام الرضا (ع) هنا نظرية معرفية توازن بين: العقل كأداة ضرورية لاستدلال أولي على الله. ومحدودية العقل في إدراك حقيقة الذات الإلهية. ودور الوحي (الكلمة) كجسر بين المحدود واللامحدود. الانزياح عن التصورات المباشرة (كالرؤية الحسية أوالأوهام)، وأن الله يُعرف بالعقل من حيث الوجود، لكنه يُنزّه عن العقل من حيث الذات.

وحول أساس الدين والمعرفة الدينية يقول الإمام (ع):

«ولا دِيانَةَ اِلّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ؛ ولا مَعْرِفَةَ اِلّا بِالإخْلاصِ، ولا إخْلاصِ مَعَ التَّشْبيهِ؛ ولَه نَفْيَ مَعَ إثْباتِ الصِّفاتِ لِتَبَيُّنِه .فَكُلُّ ما فِي الْخَلْقِ لا يُوَجَدُ في خالِقِه، وكُلُّ ما يُمْكِنُ فيه يَمْتَنِعُ في صانِعِه. ولا تَجْري عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ والسُّكُونُ؛ وكَيْفَ يَجْري عَلَيْهِ ما هُوأَجْراهُ؟ أَويَعُوُد فيهِ ما هُوابْتَدَأَهُ؟ اِذاً لَتَفاوَتَتْ ذاتُهُ ولَتَجَزَّ أَكْنُهُ ولاَ مْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْناهُ. ولَما كَانَ لِلْباري مَعْنيَ غَيْرُ مَعْنَى الْمَبْرُوءِ»[٢٣]

والمبروء من برأ: أي أوجد وخلق بَرَأَ اللّهُ الخليقةَ– كمَنَعَ– بَرْءاً، وبُرُوءاً: خَلَقَها، فهو البارئُ. [٢٤] مادة برء.

يؤكد هذا النص على الأسس العقلانية والمنطقية للتوحيد، ويبني سلسلة من الحقائق المتلازمة التي تصل إلى غاية التنزيه الإلهي:

أساس الدين هوالمعرفة في عبارة: (لا ديانة إلا بعد معرفة) وأساس المعرفة هوالإخلاص في عبارة (لا معرفة إلا بالإخلاص)، ومقولة: أساس الإخلاص هونفي التشبيه في عبارة (لا إخلاص مع التشبيه)، كذلك أساس نفي التشبيه هوإثبات الصفات مع التنزيه في قوله: (له نفي

مع إثبات الصفات لتبينه). ثم ينتقل النص إلى الأدلة العقلية على تنزيه الخالق عن صفات المخلوقات، وينتهي إلى نتيجة منطقية وهي استحالة اتصاف الخالق بصفات المخلوقين.

استخدم الإمام الرضا (ع) لإثبات هذه الأسس الأسلوب الخبري: في عبارة: ولا دِيانَةَ اِلّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ وهواثبات حقيقة وعبارة فَكُلُّ ما فِي الْخَلْقِ لا يُوَجَدُ في خالِقِهِ وهذا حكم عقلي. أيضا وظف الأسلوب الإنشائي (الاستفهام التقريري): في قوله: وكَيْفَ يَجْري عَلَيْهِ ما هُوأَجْراهُ؟ وهذاستفهام إنكاري يفيد الاستحالة.

وفيما يختص بحالات المسند والمسند إليه، فالمسند وهو الخبر يظهر في عبارة: لا يُوَجَدُ في خالِقِهِ وهذا نفي. ويَمْتَنِعُ في عبارة يَمْتَنِعُ في صانِعِهِ وهذا إثبات بالامتناع. فالمسند إليه: في قوله ما فِي الْخَلْقِ وهذا موصوف وفي عبارة: ما يُمْكِنُ فيه، يعتبر نائب فاعل.

والفصل: في عبارة ولا تَجْري عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ والسُّكُونُ ، جملة مستقلة للتأكيد، والوصل: في عبارة: وكَيْفَ يَجْري... أَويَعُوُد) ...فقد وصل الجمل بواوالعطف، والتقييد: في عبارة بَعْدَ مَعْرِفَةٍ ، وهوتقييد الزمان، وفي عبارة: مَعَ التَّشْبيهِ ، يكون تقييد المصاحبة. والإطلاق، في عبارة: كُلُّ ما فِي الْخَلْقِ ، يكون عموماً، والإيجاز في عبارة: ولا مَعْرِفَةَ اِلّا بِالإخْلاصِ ، يعتبر إيجاز بليغ، والمساواة في قوله: وكُلُّ ما يُمْكِنُ فيه يَمْتَنِعُ في صانِعِهِ ، يوجد توازن لغوي، والإطناب في عبارة: اِذاً لَتَفاوَتَتْ ذاتُهُ ولَتَجَزَّ أَكُنْهُ ...، فيه تفصيل النتائج.

يُظهر هذا النص براعة في الجمع بين: المنطق العقلي في بناء الأدلة والبلاغة اللغوية في صياغة الحجج والتدرج المنهجي من المقدمات إلى النتائج حيث يصل إلى:

تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوقات وإثبات الصفات بدون تشبيه ونفي الحركة والسكون عن الذات الإلهية التأكيد على الأزلية والتفرد الإلهي.

هذا النصّ يُعتبر جوهرًا للرؤية التوحيدية في الإسلام، خاصّة في مدرسة أهل البيت (ع)، حيث يجمع بين **التنزيه المطلق** و**الإثبات بدون تشبيه** .هنا تحليل فلسفي–كلامي للمفاهيم الأساسية:

حول مقولة الدين والمعرفة: سلسلة ضرورية جاء في قوله: «لَا دِيَانَةَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ: أي إن الدين لا يكون حقيقيًا إلا إذا بُنِي على **معرفة عقلية**، وليس على التقليد الأعمى. **وفيه** إشارة إلى أن الإيمان يجب أن يكون **واعيًا**، كما في فلسفة **الكلام** حيث العقل مقدّم على النقل.

كذلك قوله:« لَا مَعْرِفَةَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ: أي إن المعرفة الحقيقية تتطلب إخلاص النية، أي أن يكون هدفها الحقّ لا الهوى أوالجدل.

هذا يتوافق مع مفهوم العلم النوراني عند الصوفية، حيث المعرفة القلبية تكمل العقلية. وعبارة: «لَا إِخْلَاصَ مَعَ التَّشْبِيهِ» أي إن الإخلاص ينهار إذا شبهنا الله بخلقه (كالتجسيم أوالتشبيه

بالصفات المخلوقة). وهذا نقد لاتجاهات مثل المجسّمة أوبعض التيارات الكلامية التي تسقط الصفات البشرية على الله.

حول التنزيه مع الإثبات: نفي التشبيه دون نفي الصفات نجد قوله (ع): «وَلَهُ نَفْيَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِتَبَيُّنِهِ»

الله يُثبت له الصفات (كالعلم والقدرة) لكن بلا تشبيه، أي دون أن تكون مثل صفات المخلوقات. وهذا جوهر نظرية الصفات بدون كيف في الأشعرية والماتريدية [٢٥] ، لكن مع تأكيد أعمق على التنزيه. مثال ذلك: نقول الله عليم لكن لا كما يعلم البشر، لأن علمه ذاتي غير مكتسب.

وفي قوله: «كُلُّ مَا فِي الْخَلْقِ لَا يُوجَدُ فِي خَالِقِهِ» قاعدة فلسفية كلاسيكية: «الخالق لا يشبه المخلوق» فما نراه في العالم (مثل الحركة، الزمان، التركيب) لا ينطبق على الله.

وفيما يختص باستحالة الحركة والسكون على الله نجد قوله: «لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ» فالحركة والسكون من صفات المخلوقات، والله منزّه عنهما لأنه خالق الزمان والمكان. وفي تعاليم الفلسفة: الله غير متغيّر (كما عند أرسطوفي المحرك الأول)، لكن هنا بأسلوب قرآني.

وقوله: «كَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوأَجْرَاهُ؟» استفهام إنكاري: كيف يُقال إن الله يتحرك وهوخالق الحركة؟ هنا إشارة إلى أن الله علّة الوجود، فلا يمكن أن يكون محمولًا على قوانين الوجود (مبدأ تفوّق العلة على المعلول).

وفيما يختص باستحالة التغيّر أوالتجزؤ في الذات الإلهية، قوله: «إِذًا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُ» لوجاز على الله الحركة أوالتغيّر، لانقسمت ذاته إلى أجزاء (مثل: قبل الحركة وبعدها)، وهذا مستحيل لأنه بسيط غير مركّب. وفي الفلسفة الإسلامية: الله واجب الوجود الذي لا تركيب فيه (ابن سينا).

وقوله: «وَلَمَّا كَانَ لِلْبَارِي مَعْنًى غَيْرُ مَعْنَى الْمَبْرُوءِ» الخالق (البارئ) لا يشترك في أي صفة مع المخلوق (المبروء). وهذا رد على المشبّهة الذين يحمّلون الله صفات مخلوقة.

فالنص يقدّم لنا توحيدًا تنزيهيًا متكاملاً عبر ربط الدين بالمعرفة العقلية (ضد التقليد) كذلك الجمع بين الإثبات والنفي وإثبات الصفات مع نفي التشبيه، ونفي المقولات المادية (الحركة، السكون، التجزؤ) عن الله، والتأكيد على بساطة الذات الإلهية (لا تركيب فيها). كذلك يُذكّر بمبدأ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [٢٣] لكن مع عمق فلسفي يُظهر أن التوحيد الحقيقي يتجاوز كل التصورات البشرية.

تظهر لنا الفوائد العقدية من خلال النص في أن: المعرفة شرط في صحة الدين، والإخلاص شرط في صحة المعرفة، ونفي التشبيه شرط في صحة الإخلاص، وإثبات الصفات مع التنزيه هوالحق الوسط بين التشبيه والتعطيل، وهذا يتوافق تماماً مع منهج أهل البيت (ع) في التوحيد.

«ولَوحُدُّ لَهُ وَراءُ إذاً حُدَّ لَهُ أَمامٌ، ولَوالْتَمِسَ لَهُ التَّمامُ اِذاً لَزِمَهَ النُّقْصانُ، وكَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ؟ وكَيْفَ يُنْشِئُ الأَشْياءَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الإنْشاءِ؟ واِذاً لَقامَتْ فيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ، ولَتَحَوَّلَ دَليلاً بَعْدَ ما كانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ»(٢٧)

يؤكد الإمام الرضا (ع) في هذا المقطع على تنزيه الذات الإلهية عن الحدود والقيود، ونفي أي نقص أوحاجة عنها، لأن الله تعالى هوالأزلي الكامل الذي لا يخضع للزمان أوالمكان، ولا يحتاج إلى سبب أوفاعل. ويستدل (ع) على ذلك بأسلوب عقلي دقيق، مبينًا أن أي افتراض للحد أوالنقص في ذات الله يؤدي إلى التناقض، وبالتالي فهوغني عن كل شيء، وكل شيء يحتاج إليه.

الأسلوب الخبري :يُستخدم لإثبات الحقائق ونفي الباطل، وهوالغالب في النص، جاء في قوله: لَوحُدَّ لَهُ وَرَاءٌ إِذاً حُدَّ لَهُ أَمَامٌ (إثبات استحالة الحد على الله). وقوله: وإِذاً لَقَامَتْ فِيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ (نفي الصفات المخلوقة عن الله).

الأسلوب الإنشائي (الاستفهام الإنكاري) :يُستخدم لتقرير الحجة ونفي الشبهات، مثل: «كَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ؟» استفهام تقريري يفيد الاستحالة وذلك في قوله:.« وكَيْفَ يُنْشِئُ الأَشْياءَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الإنْشاءِ؟» نفي القدرة عن غير الله.

فيما يختم بحالات المسند والمسند إليه في المقطع المذكور، فالمسند (الخبر) :يدل على الثبوت والتنزيه، مثل: لَوحُدَّ لَهُ وَرَاءٌ) ...المسند: حُدَّ، يفيد النفي الضمني، وقوله «لَزِمَهُ النُّقْصَانُ» فالمسند: لَزِمَهُ، يفيد اللزوم العقلي، والمسند إليه (الفاعل أونائبه): في عبارة: «مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ»، فالمسند إليه: مَنْ، وهواسم موصول يعود على المخلوق). وقوله «آيَةُ الْمَصْنُوعِ» المسند إليه: آيَةُ، دليل على الحدوث.

الفصل (قطع الجمل) :ي لتأكيد المعاني، مثل: ولَوالْتَمِسَ لَهُ التَّمَامُ إِذاً لَزِمَهُ النُّقْصَانُ الفصل بـ إذاً للدلالة على النتيجة الحتمية.

الوصل (ربط الجمل) لتوضيح الترابط المنطقي، مثل: «وكَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ؟ وكَيْفَ يُنْشِئُ الأَشْياءَ ...»الوصل بحرف العطف وللربط بين الأدلة.

التقييد :تحديد المعنى لدفع الإيهام، مثل: «مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ» تقييد مَنْ بعدم الامتناع، لبيان أنه لا يصلح للأزلية، والإطلاق :في مثل الْأَزَلَ والْمَصْنُوعِ لإثبات العموم.

الإيجاز بالحذف :مثل حذف الجواب في لَوحُدَّ لَهُ...، لأن المعنى مفهوم (أي: لكان محدودًا، وهذا محال). والمساواة :في الجمل المتوازنة مثل لَوحُدَّ... إذاً حُدَّ، حيث تتساوى الجمل في الإيجاز والقوة. والإطناب في وإذاً لَقامَتْ فِيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ ...للتأكيد على النتيجة.

يُظهر هذا المقطع براعة الإمام الرضا (ع) في الجمع بين المنطق العقلي والأسلوب البلاغي، حيث استخدم: الأساليب الخبرية لإثبات التنزيه. والاستفهام الإنكاري لنفي الشبهات. والفصل والوصل لترتيب الأدلة. والإيجاز والإطناب حسب الحاجة.

فهو(ع) يبين أن الله تعالى لا يحده مكان ولا زمان، ولا يحتاج إلى شيء، بل كل شيء يحتاج إليه، وهذا غاية التوحيد.

المقطع يُعتبر نموذجًا رفيعًا في البلاغة والعقلانية، حيث يجمع بين الدقة المنطقية والفصاحة اللغوية، مما يجعله دليلًا قويًا على وحدانية الله وكماله

وهذا النص: ولَوحُدَّ لَهُ وَراءُ إذاً حُدَّ لَهُ أَمامٌ، ولَوالْتَمِسَ لَهُ التَّمامُ اِذاً لَزِمَهَ النُّقْصانُ، وكَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ؟ وكَيْفَ يُنْشِئُ الأَشْياءَ مَنْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الاِنْشاءِ؟ واِذاً لَقامَتْ فيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ، ولَتَحَوَّلَ دَليلاً بَعْدَ ما كانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ

هذا النص يُعتبر ذروة التنزيه الفلسفي في خطبة الإمام الرضا (ع)، حيث يُبرز استحالة إخضاع الذات الإلهية لمقولات الزمان والمكان والحدود.

كذلك يثبت لنا نفي الجهة والحدود عن الله وذلك في كلامه (ع): وَلَوحُدَّ لَهُ وَرَاءٌ إِذًا حُدَّ لَهُ أَمَامٌ: أي إذا قيل إن لله وراء (جهة خلفية)، يلزم أن يكون له أمام (جهة أمامية)، وهذا يستلزم التجسيم. فالله لا يحويه مكان، لأنه خالق المكان نفسه. هذه فكرة تتفق مع برهان التركيب عند الفلاسفة: كل محدود بجهات هومركّب، والله بسيط غير مركّب.

وعبارة: وَلَوالتُمِسَ لَهُ التَّمَامُ إِذًا لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، تعني أنه إذا تصورنا أن الله يحتاج إلى التمام (أي يكتمل بصفة خارجية)، فهذا يعني أنه ناقص بذاته. فالله هوالكمال المطلق الذي لا يعتمد على شيء خارج ذاته (مبدأ الغنى الذاتي في الفلسفة الإسلامية).

كذلك تظهر لنا استحالة اتصاف الله بالحدوث: وذلك من خلال قوله (ع): وَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ؟: الأزلية (الوجود بلا بداية) تناقض الحدوث (الوجود بعد العدم). إذا كان الله يمكن أن يتصف بالحدوث، فلا يكون أزليًا. هذا رد على المعتزلة الذين قالوا بحدوث أفعال الله، حيث يؤكد النص أن الله منزّه عن أي صفة تحدثية.

عبارة: «وَكَيْفَ يُنْشِئُ الْأَشْيَاءَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْإِنْشَاءِ؟: تعني أن الإنشاء (الخلق) صفة فعلية لله، لكنه لا يعني أن الله يحتاج إلى الخلق. بل الخلق تجلٍّ لإرادته الأزلية. الفرق بين الصفات الذاتية (كالعلم) والصفات الفعلية (كالخلق) دون أن يعني ذلك تغيرًا في ذات الله.

فالله ليس بمصنوع ولا دليل مخلوق: إِذًا لَقَامَتْ فِيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ: لوجاز على الله ما يجوز على المخلوقات (كالحدود أو التغير)، لصار كالمصنوعات، وهذا يناقض ألوهيته. إشارة إلى أن آثار المحدودية (مثل التركيب أو التغيّر) تدل على الحدوث، والله منزّه عنها.

وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ مَا كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ: الله هوالمدلول عليه (يُستدل عليه بالمخلوقات)، فلوأصبح هونفسه دليلاً (أي خاضعًا لقوانين المخلوقات)، لانقلب المنطق. هذا نقد لفكرة الطبيعيين الذين يحاولون قياس الله على قوانين الطبيعة.

من خلال التحليل تظهر لنا الأسس الفلسفية في المقطع في كل من: **تنزيه الذات عن الجهة:** كما عند **ابن سينا** في نفي الجهة عن الواجب الوجود [٢٨] **البساطة الإلهية:** الله لا أجزاء له (رد على الثنوية أوالتثليث). **والفرق بين الخالق والمخلوق:** قاعدة **كل ما خطر ببالك فالله بخلافه** [٢٩]

كلام الإمام (ع) يرفض أي تصور يجعل الله: **محدودًا** (بجهة أوزمان). **قابلًا للنقص** (باحتياجه إلى التمام). **شبيهًا بالمخلوقات** (بإمكانية اتصافه بالحدث). هذا يتجاوز حتى بعض المدارس الكلامية (كالأشاعرة) التي قد تقبل الصفات الخبرية بحملها على المجاز، ليؤكد أن **التوحيد الحقيقي** يقتضي تجريد الذات الإلهية عن كل ما يخطر بالبال.

وفي المقطع الختامي من الخطبة نجد ذروة التعبير عن التنزيه المطلق للذات الإلهية، حيث يقطع كل محاولات العقل البشري لإدراك حقيقة الله أواحتوائها في قوالب لغوية أوعقلية. هنا تحليل فلسفي وعرفاني متعمق:

«لَيْسَ فِي مَجالِ الْقَوْلِ حُجَّةٌ، وَلا فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوابٌ، وَلا فِي مَعْناهُ لِلّهِ تَعْظيمٌ، وَلا فِي إِبانَتِهِ عَنِ الْخَلْقِ ضَيْمٌ، إلاّ بِامْتِنعِ الأَزَلِيِّ أَنْ يُثَنّي، وَما لابَدَءَ أَنْ يُبْدَأ. لا إِلهَ إِلَّا اللّهُ الْعَلِيُّ الْعَظيمُ، كَذَبَ الْعادِلُونَ بِاللّهِ وضَلُّوا ضَلالاً بَعيداً وخَسِرُوا خُسْراناً مُبيناً. وَصَلَّي اللّهُ عَليه مُحَمَّدٍ وأَهْلِ بَيْتِهِ الطاّهرينَ» [٣٠]

الإبائة: باءَ إلى الشيء يَبُوءُ بَوْءاً: رَجَعَ. وبُؤْت إليه وأَبَأْتُه الإرجاع، [٣١] والضيم: هضم الحقوق الضَّيْم: الظلم، وقد ضَامَهُ يَضِيمُهُ واسْتَضَامَ فهو مُضِيم ومُسْتَضَام أي مظلوم. وقد ضُمْتُ أي ظلمت [٣٢] التثني: الإنعطاف. العدلون: جمع عادل: هنا هم المشبّهة الذين يسوّون بين الله وخلقه (كالكرامية أو بعض الحنابلة الأوائل).

نجد في النص الاقتباس من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً﴾ (٣٣).

يؤكد هذا المقطع عجز العقول واللغة عن إدراك حقيقة الذات الإلهية، وأن محاولة وصف الله أوالسؤال عن كنه ذاته تستحيل، لأن الله تعالى **أزلي لا بداية له**، ولا يُوصف بصفات المخلوقين. ثم يختم (ع) بتكذيب الذين يشركون بالله أو يعتقدون فيه اعتقادات باطلة، ويُصلّي على النبي (ص) وأهل بيته (ع).

وظف الإمام (ع) الأسلوب الخبري لإثبات الحقائق ونفي الباطل، وذلك في قوله «لَيْسَ فِي مَجَالِ الْقَوْلِ حُجَّةٌ» نجد في قدرة الكلام على إثبات ذات الله وقوله: «كَذَبَ الْعادِلُونَ بِاللّه» حكم قطعي على المشركين. أيضاً نجد في النص (الاستفهام الضمني): يُستخدم للتقرير والتوبيخ، مثل: «وَلا فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوابٌ» ،استفهام تقريري يفيد الاستحالة.

نجد الفصل وهوقطع الجمل لتأكيد المعاني، ذلك في قوله: وَلا فِي مَعْنَاهُ لِلّهِ تَعْظيمٌ (الفصل بـ وللتفريق بين المعاني). والوصل (ربط الجمل) للترابط المنطقي، ذلك في قوله: إِلّا بِامْتِناعِ الأَزَلِيِّ أَنْ يُثَنّى (الوصل بحرف الاستثناء إلّا). والتقييد :تحديد المعنى، مثل: إِلّا بِامْتِناعِ الأَزَلِيِّ) تقييد الاستثناء بالأزلية.(الإطلاق :في مثل ضَلالاً بَعيداً (لبيان شدة الضلال). الإيجاز بالحذف :مثل حذف العائد في وَلا فِي مَعْنَاهُ لِلّهِ تَعْظيمٌ. المساواة :في الجمل المتوازنة مثل لَيْسَ... وَلا... وَلا.... الإطناب :في وخَسِرُوا خُسْراناً مُبيناً للتأكيد.

يُظهر هذا المقطع عظمة الله وعجز الخلق عن إدراكه، باستخدام: النفي المتكرر لبيان استحالة الإحاطة بالله. التكرار مثل ضَلُّوا... خَسِرُوا للتأكيد على عقوبة المشركين. الختام بالصلاة على النبي (ص) لإظهار الارتباط بالولاية. المقطع يُجسّد غاية التوحيد، ويحذر من الضلال بالتشبيه أوالشرك، مؤكدًا أن الله أعظم من أن يُوصف.

وفيما يختص بفشل الأدوات المعرفية في إدراك الذات الإلهية، نجد قوله: «لَيْسَ فِي مَجَالِ الْقَوْلِ حُجَّةٌ»، أي إن اللغة عاجزة عن تقديم برهان حقيقي عن ذات الله، لأنها أداة مخلوقة لإدراك المخلوقات. كما قال الغزالي: كل ما يُذكر في الإلهيات فهو تشبيه، واللغة تعجز عن نقل الحقيقة المطلقة.

وقوله: «وَلَا فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوَابٌ» أي إن الأسئلة البشرية عن كيف أو لماذا في ذات الله لا جواب لها؛لأنها تفترض إمكانية احتواء المطلق في قوالب محدودة، إشارة إلى مبدأ اللاّإدراك في العرفان حيث يقول: «مَنِ اِعتَقَدَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ بِصُورَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ» (٣٤)

وحول العجز عن التعظيم الحقيقي، يقول: «وَلَا فِي مَعْنَاهُ لِلَّهِ تَعْظِيمٌ» أي كل محاولة لتعظيم الله عبر المفاهيم البشرية كالعظيم أو القدير تظل قاصرة؛ لأنها لا تلامس حقيقة عظمته. كما جاء في النص القرآني: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ (٣٥)

وقوله: وَلَا فِي إِبَانَتِهِ عَنِ الْخَلْقِ ضَيْمٌ فيه إشارة إلى تنزيه الله عن الخلق لا يُنقص من قدره، بل هوكمال وذلك خلافًا لاعتقاد من يظن أن الإله يحتاج إلى العالم.

ويشير إلى الأزلية والبداهة الوجودية، بقوله: «إِلَّا بِامْتِنَاعِ الْأَزَلِيِّ أَنْ يُثَنَّى» أي إن الله كأزلي لا يقبل التثنية (لا شريك له)؛ لأنَّ الشركة تستلزم الحدوث والتركيب. وفي هذا نقد للثنوية (الزرادشتية) أوالتثليث المسيحي فلسفيًا.

وقوله: «وَمَا لَا بَدْءَ أَنْ يُبْدَأَ» أي إن ما لا بداية له (الله) لا يمكن أن يُعلّل بعلة وهذا هومبدأ استحالة التسلسل في البرهان الفلسفي.

وفيما يختص بتكذيب المشبّهة والضلال الكبير، يقول الإمام الرضا (ع): «كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ» والعادلون هنا هم المشبّهة الذين يسوّون بين الله وخلقه (كالكرامية أو بعض الحنابلة الأوائل)، كذلك في الفلسفة من يخلط بين الواجب (الله) والممكن (المخلوقات) يقع في التناقض.

ويصفهم بأنهم: «ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا» والضلال هنا هوالشرك الخفي، حيث يعتقدون أنهم يعرفون الله بينما هم يعبدون تصوراتهم الذهنية.

نجد في هذا المقطع الختامي من الخطبة الأسس العرفانية وهي نظرية الفيض إلى الخلق: وهي إن الله لا يُعبّر عنه بالفيض كالفلسفة المشائية؛ لأنه ليس سلسلة وجودية، بل هوالمنفصل عن الخلق جوهريًا.

نجد في مضامين النص الفرق بين الذات والصفات: حتى صفات الله (كالعلم والقدرة) ليست كصفاتنا، كما يقول العرفاء: صفاته عين ذاته. والبرهان السلبي: الطريق الوحيد لمعرفة الله هونفي النقائص، لا الإثبات المباشر، كما في قول الإمام علي (ع): لم يُعرف الله إلا بالتنزيه.

يختم الإمام الرضا (ع) الخطبة بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» كتأكيد على التوحيد السلبي :نفي كل إله غير الله. والتعالي المطلق :العلي عن كل تصور، العظيم عن كل تحديد. وهذا يتجاوز حتى التوحيد الكلامي (كالأشاعرة) (٣٦) إلى توحيد العرفاء، حيث: الذات الإلهية :لا تُعرف إلا بأنها لا تُشبه شيئًا. والمعرفة الحقيقية :الاعتراف بالعجز عن المعرفة، كما قال الجنيد: معرفتك بالعجز عن معرفته معرفة. فكل محاولة لقول شيء عن الله هي في الحقيقية قول عما ليس هو، وهذا أعلى درجات التنزيه.

نتائج البحث

بعد البحث والتحري في خطبة الإمام الرضا المعروفة بالخطبة التوحيدية بغية الكشف عن جماليات فن المعاني في نصوصها وصلنا إلى النتائج التالية:

١-تحمل هذه الخطبة دلالات عقلية وكلامية، حيث سعى الإمام (ع) من خلالها إلى تبيين العقيدة الصحيحة حول التوحيد ونفي الشرك عن الله تعالى، وإثبات صفات الباري جلَّ وعلا، مستخدماً في ذلك الأدلة والبراهين والحجج العقلية والكلامية، داحضاً بذلك شبهات المُشكِّكين .

٢-اتسمت هذه الخطبة بجماليات بلاغية وفكرية عميقة، تجلَّت فيها الدقة في التعبير، والتنوع في الأساليب البلاغية، مع التسلسل المنطقي المحكم والاستدلال العقلي المتين، مما جعلها نموذجاً رفيعاً للأدب الديني والفلسفي.

٣-وظَّف الإمام (ع) في خطبته آليات الحجاج البلاغي والأسس العقلية لإثبات التوحيد الخالص، ونفي ما يُتوهَّم من شبهات حول ذات الباري تعالى.

٤-ومن خلال البحث والتحليل لفقرات الخطبة، تبيَّن تعدد الأساليب البلاغية المتجلية في فن المعاني، ومن أبرزها:

الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي، خاصة الاستفهام البلاغي. كذلك طرق الإسناد وأحوال المسند والمسند إليه، الإطلاق والتقييد، والفصل والوصل، أيضاً الإيجاز المكثف والانزياح الدلالي، وأسلوب القصر.

وقد تميزت الخطبة بالاستخدام الفني للغة، مع مراعاة التناسب بين الألفاظ والمعاني، والتكرار غير المخلّ المصحوب بالتنويع، فضلاً عن الاقتباس القرآني في بعض المضامين.

٥-كما تضمَّنت الخطبة أسساً عقلية لبيان الحجج والبراهين، من خلال التدرج المنطقي والترتيب الفكري، كذلك الاستدلال والتصوير العقلي والفطري، نفي الحدوث والافتقار عن الله تعالى، أيضاً التأكيد على استقلالية الذات الإلهية.

٦-وبالتالي إبراز دور الفطرة، والاستدلال بالخلق على الخالق. وقد اتَّبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع التركيز على التحليل البلاغي والأسلوبي.

إنَّ الإمام الرضا (ع) بدافع دحض الشبهات حول التوحيد الخاص، تناول التوحيد السلبي، الذي يعني نفي أي إله غير الله، وإثبات التعالي المطلق لله سبحانه، مع بيان حدود المعرفة البشرية ومدركاتها في إدراك الذات الإلهية.

الهوامش

(١) الصدوق، ابن بابويه، القمي، محمد علي، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٥

(٢) . (الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢، ص ١٣٥)

(٣) . (الهاشمي، ١٣٧٣: ٣٥).

(٤) . (الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢، ص ١٣٥).

(٥) . (الهاشمي، ١٣٧٣: ٤٣)

(٦) . (عبدالسلام هارون ، الأساليب الانشائية في النحو العربي ، القاهرة : مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م.

(٧) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(٨) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(٩) . (الصدوق، محمد بن علي ، عيون أخبار الرضا (ع) ، بيروت : منشورات مؤسسة الاعلمي ، ١٩٨٤ م .

(١٠) . (الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥، ص: ٢٠٦١، مادة همم).

(١١) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(١٢) . (سورة البقرة، الآية: ٢٥٥).

(١٣) . (سبزواری، ج١، ص ٣٢٣).

(١٤). (الفرقان، ٤٧)

(١٥) . (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩، ص ، ٦٨)،

(١٦). (سورة النبأ، الآية: ٩).

(١٧) . (الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢ ص ١٣٦).

(١٨) . (سورة الذاريات ، الآية: ٤٩).

(١٩) . (سورة الذاريات، الآية: ٤٩)

(٢٠) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(٢١) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(٢٢) . الهاشمي ، احمد ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ،مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ٢٠١٩ م .

(٢٣) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧).

(٢٥) . (المدني، ج١، ص: ٢٦)

(٢٦) (الشافعي (١٩٩١)، ص.٩٠)

(٢٧) . (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧)

(٢٨) ـ (ابن سينا، النجاة، انتشارات دانشگاه تهران ج١، ص١٢٩)؛ الدّليل العقلي على تنزيه الله عن المكان والجهة) ٣(

(٢٩) ابن عربي

(٣٠) (الصدوق، عيون أخبار الرضا ،ج ٢، ص ١٣٧.)

(٣١) . (ابن منظور، لسان العرب مادة بوأ، ج١، ص ٣٦)،

(٣٢) . (الطريحي، مجمع البحرين، مادة: ضيم، ج٦، ص: ١٠٥)
(٣٣) (سورة النساء، الآية: ١١٦)
(٣٤) ابن عربي. الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٢٢٢
(٣٥) سورة طه، الآية: ١١٠

Footnotes
(1) Al-Saduq, Ibn Babawayh, Al-Qummi, Muhammad Ali, Uyun Akhbar Al-Rida, Vol. 2, p. 135
(2) - (Sheikh Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida (peace be upon him), Vol. 2, p. 135)
(3) - (Al-Hashemi, 1373: 35)
(4) - (Sheikh Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida (peace be upon him), Vol. 2, p. 135)
(5) - (Al-Hashemi, 1373: 43)
(6) - (Abd al-Salam Harun, Construction Methods in Arabic Grammar, Cairo: Al-Khanji Library, 2001.
(7) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar al-Rida, Vol. 2, p. 137).
(8) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar al-Rida, Vol. 2, p. 137).
(9) - (Al-Saduq, Muhammad ibn Ali, Uyun Akhbar al-Rida (peace be upon him), Beirut: Al-A'lami Foundation Publications, 1984.
(10) - (Al-Jawhari, Al-Sihah: Taj al-Lughah wa-Sihah al-Arabiyyah, Vol. 5, p. 2061, entry: hmmm).
(11) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar al-Rida, Vol. 2, p. 137).
(12) - (Surat al-Baqarah, Verse: 255).
(13) - (Sabzavari, (Vol. 1, p. 323).
(14) - (Al-Furqan, 47)
(15) - (Ibn Ashur, At-Tahrir wa At-Tanwir, Vol. 19, p. 68)
(16) - (Surat An-Naba, verse 9)
(17) - (Shaykh Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida (peace be upon him), Vol. 2, p. 136)
(18) - (Surat Adh-Dhariyat, verse 49)
(19) - (Surat Adh-Dhariyat, verse 49)
(20) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida, Vol. 2, p. 137)
(21) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida, Vol. 2, p. 137)
(22) - Al-Hashemi, Ahmad, Jawahir Al-Balagha fi Al-Ma'ani, Al-Bayan wa Al-Badi', Hindawi Foundation, United Kingdom, 2019.
(23) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida , Vol. 2, p. 137).
(25) - (Al-Madani, Vol. 1, p. 26)
(26) (Al-Shafi'i (1991), p. 90)

(27) - (Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida, Vol. 2, p. 137)
(28) - (Ibn Sina, Al-Najat, Tehran Publications, Vol. 1, p. 129); Rational Proof of God's Transcendence of Place and Direction (3)
(29) Ibn Arabi
(30) (Al-Saduq, Uyun Akhbar Al-Rida, Vol. 2, p. 137).
(31) - (Ibn Manzur, Lisan Al-Arab, under the word "bu'a", Vol. 1, p. 36),
(32) - (Al-Tarihi, Majma' Al-Bahrain, under the word "dhaim", Vol. 6, p. 105)
(33) (Surat An-Nisa, Verse 116)
(34) Ibn Arabic: Al-Futuhat Al-Makkiyyah, Vol. 2, p. 222
(٣٥)Surah Ta-Ha, Verse: 110

المصادر

***القرآن الكريم**

****نهج ابلاغة**

1 ابن سينا، حسين بن عبد الله، النجاة من الغرق في بحر الضلالات، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢ق.

2 ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول صلى اللّه عليهم، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، د.ن، ١٣٦٣ ش

3 ابن عاشور، محمد طاهر، التحرير والتنوير، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ.

4 ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العب، بيروت: دار العلم، ٢٠٠٣م.

5 جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، بيروت، لبنان: دار الطليعة، ١٩٨٧م .

6 سبزواری، محمد، الجديد فی تفسير القرآن المجيد، بيروت: دار التعارف للمطبوعات ١٩٠٠/١/١

7 سعد رستم (٢٠٠٥). الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع.

8 الشافعي، حسن محمود، المدخل إلى دراسة علم الكلام، القاهرة: مكتبة وهبة،١٩٩١م .

9 الشيخ صدوق، محمّد بن علي، التوحيد جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية،٢٠١٩/٢/٢٨

10 الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا (ع)، بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي ،١٩٨٤م.

11 الطبرسی، احمد بن على، الإحتجاج على أهل اللجاج، النجف: مطابع النعمان، ١٩٦٦م.

12 الطريحي، فخر الدين بن محمد علي، مَجْمَعُ اَلْبَحْرَيْنِ وَمَطْلَعُ اَلنَّيِّرَيْنِ، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨ق.

13 الطوسی، محمد بن الحسن، الأمالي، قم: دار الثقافة، ١٤١٤ق.

14 عبدالسلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحوالعربي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م.

15 علي عبد الفتاح المغربي، الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٥م.

16 فيصل بدير عون، علم الكلام ومدارسه القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٧م.

17 المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.

18 مجموعة من الباحثين بإشراف طوني مفرج ، موسوعة عالم الأديان بيروت: نوبيليس، ٢٠٠٥م.

19 محمد عمارة ، تيّارات الفكر الإسلامي، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م.
20 المدني، سيد على بن احمد، الطراز الأول والكناز لما عليه من لغة العرب المعول، مشهد: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ١٤٢٤ق.
21 المفيد، محمدبن‌محمد، مجالس، شيراز: نويد، ١٣٧٣ش.
22 الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، القاهرة : الهنداوي ،المملكة المتحدة ٢٠١٩ م

Sources

***The Holy Qur'an**
****Nahj Ibalagha**
1. Ibn Sina, Husayn ibn Abdullah, Salvation from Drowning in the Sea of Misguidance, Beirut: Dar al-Jil, 1412 AH.
2. Ibn Shu'bah, al-Hasan ibn Ali, Tuhaf al-'Uqul 'an Aal al-Rasul (may God bless them), edited by Ali Akbar Ghaffari, Qom, n.d., 1363 AH.
3. Ibn Ashur, Muhammad Tahir, al-Tahrir wa al-Tanwir (The Liberation and Enlightenment), Beirut: Arab History Foundation, 1420 AH.
4. Ibn Manzur, Muhammad ibn Makram, Lisan al-'Ab (The Language of the 'Abd), Beirut: Dar al-'Ilm, 2003 CE.
5. George Tarabishi, Mu'jam al-Falasifa (The Dictionary of Philosophers), Beirut, Lebanon: Dar al-Tali'ah, 1987 CE.
6. Sabzwari, Muhammad, The New Interpretation of the Glorious Qur'an, Beirut: Dar Al-Ta'aruf Publications, January 1, 1900.
7. Sa'd Rustum (2005). Islamic Sects and Schools of Thought Since the Beginning, Damascus: Al-Awa'il Publishing and Distribution.
8. Al-Shafi'i, Hassan Mahmoud, Introduction to the Study of Theology, Cairo: Wahba Library, 1991.
9. Sheikh Saduq, Muhammad ibn Ali, Tawhid: The Group of Teachers in the Seminary, February 28, 2019.
10. Al-Saduq, Muhammad ibn Ali, Uyun Akhbar al-Rida (peace be upon him), Beirut: Al-A'lami Foundation Publications, 1984.
11. Al-Tabarsi, Ahmad ibn Ali, Al-Ihtijaj 'ala Ahl al-Lajja, Najaf: Al-Nu'man Press, 1966.
12. Al-Turahi, Fakhr al-Din ibn Muhammad Ali, Majma' al-Bahrayn wa Matla' al-Niraynayn, Islamic Culture Publishing Office, 1408 AH.
13. Al-Tusi, Muhammad ibn al-Hasan, Al-Amali, Qom: Dar al-Thaqafa, 1414 AH.
14. Abd al-Salam Harun, Constructional Methods in Arabic Grammar, Cairo: Al-Khanji Library, 2001.
15. Ali Abd al-Fattah al-Maghribi, Islamic Theological Sects, Introduction and Study, Cairo: Wahba Library, 1995.
16. Faisal Badir Aoun, Theology and Its Schools, Cairo: Dar al-Thaqafa, 1977.
17. Al-Majlisi, Muhammad Baqir, Bihar al-Anwar, Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, 1983.
18. A group of researchers under the supervision of Tony Mufarrej, Encyclopedia of the World of Religions, Beirut: Nobilis, 2005.
19. Muhammad Amara, Currents of Islamic Thought, Cairo: Dar Al-Shorouk, 1997.

20. Al-Madani, Sayyid Ali ibn Ahmad, The First Style and the Treasure of the Arabic Language, Mashhad: Aal al-Bayt Foundation for the Revival of Heritage, 1424 AH.
21. Al-Mufid, Muhammad ibn Muhammad, Majalis, Shiraz: Navid, 1373 AH.
22. Al-Hashemi, Ahmad, The Jewels of Eloquence in Meaning, Rhetoric, and Poetics, Cairo: Al-Hindawi, United Kingdom, 2019.